د. محمد محمد يونس علي

تحليل الخطاب وتجاوز المعنى

نحو بناء نظريّة المسالك والغايات



كنوز المعرفة

تحليل الخطاب وتجاوز المعنى

نحو بناء نظريّة المسالك والغايات



د. محمد محمد يونس علي

تحليل الخطاب وتجاوز المعنى

نحو بناء نظريّة المسالك والغايات



الطبعة الأولى
1437هـ 2016م



تحليل الخطاب وتجاوز المعنى

تأليف : د. محمد محمد يونس

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:(2016/1/141)

ردمك ISBN 978 9957 74 576 9

الطبعة الأولى

1437هـ 2016م



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع

عمان - وسط البلد - شارع الملك الحسين

ص.ب 712577 عمان (11171) الأردن

هاتف 4655 877 فاكس 875 4655 6 962+

dar_konoz@yahoo.com

E-mail: info@darkonoz.com

تصميم الغلاف والإشراف الفني :دار كنوز المعرفة

تمهيد:

يُعدّ مصطلح «تحليل الخطاب» من المصطلحات التي دخلت مجال البحث العلمي والثقافة العالمية بتأثير من الدراسات اللسانية، وينسب هذا المصطلح إلى زليج هاريس Zellig Harris الذي عنون بحثًا له بهذا المصطلح سنة **١٩٥٢**، وإن كان قد نحا به منحى نحويًا أبعده إلى حدّ كبير عن مفهوم «تحليل الخطاب» بالمعنى الشائع في اللسانيات الحديثة[١].

لقد تطوّر مفهوم «تحليل الخطاب» تطوّرا سريعا، وأخذ ذلك أشكالا مختلفة أسهم في تنوّعها اختلاف خلفيات المحللين بين لسانيين ونقاد أدب، ودارسي الديانات المقارنة، وإناسيين anthropologists، وعلماء اجتماع، وعلماء نفس.

فبينما اهتم هاليدي Halliday وفان ديجك Van Dijk وهوي Hoey بلسانيات النص Text Linguistics؛ عرف شقلوف

---

(1) Robert F Barsky, Zillig Harris: From American Linguistics to Socialis Zionism (Cambridge Massachusetts: the MIT, 2011) p 154. Brian Paltridge, Discourse Analysis: An Introduction, 2nd edn (London: Ploomsbury Publishing, 2012), p.2.

Schegloff وجوفمان Goffman وشريفين Schriffin باهتمامهم بتحليل المحادثة، وإن كان بول قرايس Paul Grice قد سبقهما إلى ذلك بمقاربته التداولية. وتميّز بوتر Potter وويثيرال Wetherell بالعناية بعلم النفس الخطابي Discoursive Psychology، وركّز لاكوف Lakoff وتانِن Tannen على المقاربة الإدراكية Cognitive Approach، أما لابوف Labov وتشيف Chafe فقد اختارا التحليل السردي Narrative analysis في حين عرف دريدا Derrida بمنهجه التفكيكي، وفوكو Foucault وإيكو Eco ولوتمان Lotman بالمنهج السيميائي، وإن كانت السيميائية لا تنفك عادة عن المنهج التفكيكي.

وسيتناول هذا الكتاب تحليل الخطاب وفقا لما أسميه بنظرية المسالك والغايات المؤسّسة على فكرتين

١- أنّ الخطاب بنية معرفيّة مركبة من الإحالات المرجعية؛ ولذا ينبغي مراعاة ذلك في إنتاجه وتلقّيه وتفسيره وتحليله وتقييمه .

٢- وأنّه عمل إرادي ينتج عن مسلك، ويرتبط عادة بمقصد، وغرض، وغاية (بالمعنى الخاص لهذه المصطلحات).

فعندما نقرأ في الأخبار عنوانا يقول:

«موجة من اللاجئين السوريين تضرب أوروبا»[١] .

(1)http://www.breitbart.com/national-security/2015/09/09/the-syrian-refugee-wave-hits-europe-invasion-immigration-or-both/

فلا بُدَّ من النظر إلى أنّ المحرّر

١- صاغه وفق **مسلك** خاص في صياغة الخبر،

٢- **وقصد** من خلاله إخبار المتلقين بوصول عدد كبير من المهاجرين السوريين إلى أوروبا،

٣- **وغرضه** التحذير من هذه الهجرات،

٤- **وغايته** التأثير في الرأي العام.

وقد انتقى المخاطِبُ كلماته بعناية متوسّلا باستعارة مشحونة بعناصر الاستهجان والخطورة مستدعية معها زمرة من الإيحاءات السيكولوجية الاجتماعية التي تحيط بكلمة «موجة» بما تحمله من تجارب وخبرات تاريخية قاسية على السكان؛ إذ من الشائع تاريخيا تعرّض شواطئ أوروبا إلى موجات من التسونامي، ولاسيما شواطئ البحر الأبيض المتوسّط، وإلى حملات حربية عدائية هبّت عليهم من وراء البحار؛ وهو ما يساعد في تصوير الحادثة على أنها نزعة عدائية تحمل خطرا يحدّق بالأوروبين.

ولا يمكن لمتلقّي هذا الخطاب أن يتمكّن من استيعابه دون أن يحلّل المسالك المتبعة في صوغه، وأن يدرك

١- مقصده السياقي

٢- وغرضه الإبلاغي

٣- وغايته الاجتماعية

ودون أن يتـوّسل بالمرجـعـيّـات اللسـانيـة والبـلاغـيّـة والسيكولوجيّة والاجتماعيّة التي أسهمت في بنيته.

وأخيرا يسعدني أن أتوجّه بالشكر الجزيل لكل من د حافظ إسـماعيلي، ود هيـثم سرحـان، ود صـائل شـديد على تكرّمـهم بقراءة المسودة، وعلى ملحوظاتهم القيّمة.

الفصل الأول

نظرية مرجعيّة الخطاب

١- مقدمة

منذ أن انتقلت البنيوية إلى المجالين النقدي والأدبي وتلقفتها النظريات الحداثية شاع الاعتقاد بإمكان دراسة النص في عزله عن سياقه؛ أي عن كل ما يحيط به فيزيائيا واجتماعيا وتاريخيا، وقد حاول لويس هامسلاف Louis Hjelmslev (١٨٩٩-١٩٦٥) أن يصوغ هذه الفكرة بما عرف بمصطلح «المحايثة» immanence (وهو في الأصل مصطلح ديني يعني التجسّد الإلهي في العالم المادي)، وكان تشارلز ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce (١٨٣٩-١٩١٤) قد سبقه بفكرة السيرورة أو «السميوزيس» semiosis التي تعني أن العلامة تدل على علامة أخرى ثم تدل تلك العلامة المدلول عليها بالعلامة الأولى على علامة ثالثة وهكذا تستمر الدلالات على هذا المنوال، وفقا لما عرف عند بعض منظري التراث بفكرة أن «المعنى يجذب المعنى»[١].

---

(١) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، ط٢ (قم إيران: دار الذخائر، ١٣٦٨)، ١: ٢٩٢.

ومهما يكن مفهوما المحايثة والسيرورة رائقين لنقاد الأدب فإن تطبيقهما على النصوص المقاصدية لا يخلو من مغامرة محفوفة بمخاطر السقوط في ربقة الذاتية، وتجاوز مراد المخاطِب الذي هو الغاية الحقيقية لكل عمليات التخاطب؛ وذلك لأن المفهومين المذكورين يتضمنان توجها نحو تجريد الجزئيات والنهج نحو الكليات، ومن ثم إلغاء الواقعي لصالح إغناء الذهني، ويؤول هذا الأمر إلى خلق عالم ذهني بديلا للواقع الحقيقي؛ لأن الموجود الحقيقي إنما هو الجزئي، أما الكلي فلا يوجد إلا في الذهن. وربما كان من أهم أسباب ذلك التوجّه نحو الكلي الذهني تلك القطيعة التعسفية الناشئة عن عزل النص عن سياقاته المرجعية المقارنة له، وهي التي يناط بها عادة الكشف عن مرادات المخاطِب.

ومن هنا فإن من أهم ما يرمي إليه هذا العمل هو إعادة النظر في قصر عملية الدلالة على ثنائية اللفظ والمعنى، وعرض نظرة للخطاب تقوم على النظر إليه بوصفه بنية معقدة تتضمن شبكة من المضامين المرتبطة بزمرة من المرجعيّات اللغوية والسياقية والفكرية والاجتماعية على أن تصدر من متكلم عاقل، وترتبط بغرض ما.

إن نظرتنا المميزة للمعنى تكشف عن علاقات غير محدودة بين المعنى ودواله، وبين النصوص ومرجعياتها، وتفترض هذه النظرة أن لكل دال مرجعيته الخاصة، فإذا فقدت المرجعية

فقدت إفادته، كما أن أي محاولة لعزل النص المقاصدي عن مرجعياته تؤول إلى اقتلاعه من جذوره وإلى قطع ماء الحياة عنه، ومن ثم الحكم عليه بالموت والفناء، ولذا فإن التمترس بالبنيوية لعزل النص ومحاصرته لا تجدي نفعا في كشف مضامينه أو تحليل عناصره؛ لأن مرجعيات النص ما هي إلا جزء من بنيته الموسّعة التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فهي أيضا تحيل ذهنيًا على مكوّنات النص اللفظيّة، كما أن المكوّنات تحيل عليها في شكل حلزوني تفاعلي.

إن هدفنا الأسمى من هذا العمل هو البحث عن مقاربة موضوعية لتفكيك الأنظمة المنتجة للخطاب من خلال تتبع معطيات الخطاب المرتبطة بمرجعيّاته. وسنسعى إلى بناء نظرية متسقة منطقيا واضحة المعالم وقريبة إلى ذهن مستعملي اللغة تنطلق من أصول نظريّة تؤكد عدم إغفال سمة المقاصدية وربط تلك السمة بمرجعيات الخطاب.

وعلى الرغم من سعينا للإفادة من المنجزات العلمية التراثية وما لحقها من إنجازات غربية فإننا سنتجنب الطريقة السائدة عند بعض الحداثيين والسيميائيين ومنظري الخطاب العرب التي تقوم على حشد المؤلَّف بأسماء الأعلام والمصطلحات الأجنبية قدر الإمكان إيحاءً إلى السامع بسعة الاطلاع وتنوع مصادر المعرفة دون تسويغ لرصف التعريفات والمفاهيم وتزاحم الاقتباسات ودون تقديم منهج محدد المعالم أو

أي نوع من المقاربة الموضوعية المعززة بأصول نظرية. إن بعض هؤلاء يدفعونك أحيانا -وأنت تبحر في أسرار طلاسمهم وتتيه في غوصك فيها- إلى اتهامهم بممارسة ما يمكن تسميته بـ «الشعوذة السيمائية» أو «الكهانة الحداثية».

ومن الأسس التي يقوم عليها هذا العمل:

١- التفريق بين النصوص المقاصدية (مثل المحادثة، والنصوص الشرعية والقانونية والإعلامية والسياسية) والنصوص الأدبية ذات الطابع الفني. والفرق الجوهري بين هذين النوعين من النصوص ليس خلو الثانية من المقصدية بقدر اتسامها بالثراء الدلالي والتكثيف المعنوي، على حساب الصرامة المقصدية التي يتسم بها النوع الأول. إن التفريق بين النوعين ينبغي أن يفهم في ضوء التفريق بين المعنى والمقصد، بيد أنه ينبغي التنويه بأنه على الرغم من السير باتجاه البحث عن المقصد في النصوص المقاصدية والكشف عن المعنى وسيرورته التراكمية في النصوص الأدبية، فإنه لا يمكن الادعاء بخلو الأولى من المعنى أو تجاهل الثانية للمقاصد. إن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة موازنة تترجح فيها كفة المعنى في الأدب وسمة المقصدية في الإبلاغ. وسيترتب على هذا التنوع بين النوعين من النصوص تميز المسالك والمرجعيات المرتبطة بكل منها .

٢- مادة النص صناعة لغوية وضعية سابقة وصورته نتاج استعمالي تخاطبي، فالمادة مدخل للإبداع والصورة مخرج له، وليس المقصود بالمادة هنا المفهوم الفيزيائي للجوهر؛ إذ هذا النوع من الكيانات لا يكاد يوجد في اللغة إلا بقدر ما تحويه من أصوات منطوقة أو حروف كتابية، بل المقصود بالمادة إنما هو العناصر اللغوية التي تزودنا بها اللغة.

ومثلما لا يستطيع الإنسان أن يتخيل كائنا لم ير أجزاءه في حياته، فكذلك النص، فإنّ جِدّته في تأليفه، أما أجزاؤه فهي مستقاة من نصوص أو خطابات سابقة، وهو ما يعطي أهمية خاصة لمسلك التناص في تأليف الخطاب، ذلك المسلك الذي يمكن لنا أن نعرفه بأنه إذابة المقتبس في بنية النص، وليست مجرد «الإحالة على نص آخر أو نوع من النصوص»،[1] كما عرفه جيمس بول جي James Paul Gee.

وهكذا فإن النص البشري إنما هو نتاج اقتباسات (حرفية أو تضمينية) تشتمل على مواضعات واستعمالات (حرفية أو ضمنية) وثقافة فردية ومؤسسية تعمل في إطار محيط زماني ومكاني.

---

(1) James Paul Gee, An introduction to discourse analysis: theory and method, 2nd edition (New York: Routledge, 2005), p.21.

٢- مفهوم الخطاب

عُـرّف الخطاب في تراثنا بأنه «توجيـه الكلام نحو الغيـر للإفـهـام»، وهذا تعـريف له بمعنى المصـدر؛ أي بمعنى «المخاطبـة» وهو المعنى الأصلي للكلمة، ولكنه صـار مستعمـلا بمعنى اسم المفـعول، وقـد عُـرّف على هذا المعنى بأنّه «الكلام الموجَّه نحو الغير للإفهام»[١]، وبذلك ينطبق على كل كلام يوجّهه متكلّم لآخر بقصد إفهامهه أمرا ما.

ويعـرّف سيف الدين الآمـدي في الأحكام[٢] -كمـا ينقل التـهـانوي- الخطاب بأنه «اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفـهـام من هو متهيئ لفهمه»[٣]. ومن الملحوظ في هذا التعريف:

١- أن الخطاب مـقـصـور على الملفـوظ فـقط دون الحـركـات والإشـارات، وإن لـم يـكـن ثمـة مـا يمنع من جـعـل المكـتـوب داخلا فيه .

٢- أنه يشترط فيما يسمى خطابًا أن يكون مقصودا، وموجّها إلى عاقل مصغ لكلام قائله .

---

(١) محـمـد علي التـهـانوي ، كـشـاف اصطلاحـات الفنون ، إشـراف رفـيق العـجم (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون ، ١٩٩٦) ، ٧٤٩/١ .

(٢) الآمدي ، علي بن محمد ، الإحكام في أصول الأحكام ، تحقيق سيد الجميلي (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط٢-١٩٨٦م) ، ١ : ١٣٦ .

(٣) التهانوي ، ٧٤٩/١ .

٣- أن يكون اللفظ متواضعا عليه، وهنا ينبغي ألا يفهم من ذلك أن المقصود هو أن الكلام غير الموضوع (أي ما ليس موضوعا لغة) لا يعدّ خطابا؛ إذ المقصود بالمتواضع عليه هنا ما يقبل الفهم استنادا إلى معطيات الوضع أو السياق، وإلا لخرج المجاز ونحوه من مستلزمات اللفظ من هذا التعريف.

وفي الدراسات الحديثة نجد التباسًا بيّنا بين الخطاب والنص وصعوبةً في التفريق بينهما، فمن تعريفات الخطاب discourse تعريف ديفيد نونان David Nunan الذي يرى أن الخطاب يمكن أن يُعرّف بأنه «قطعة stretch من اللغة تتألف من جمل تبدو مترابطة ترابطا ما»[١]. ويرى أن الترابط قد يكون مصدره الأفكار التي يحتويها الخطاب أو الوظائف التي يؤديها.[٢] ومن التعريفات المشابهة تعريف كريستال Crystal[٣]، وقد عرّفه كوك Cook بأنه قطع من اللغة يعتقد بأنها مفيدة، وموحّدة، وذات غاية»[٤].

(1) David Nunan, Introducing Discourse Analysis (London: Penguin Group, 1993), p.5.

(2) Ibid.

(3) D. Crystal, Introducing Linguistics (London: Penguin Group, 1992), p. 25. And see Nunan, p.5.

(4) G. Cook, Discourse (Oxford: Oxford University Press, 1989), p. 156 And see Nunan, p.5.

ويبدو أن كريستال لا يفرق بين النص text والخطاب، غير أن كوك يطلق النص على ما يفهم على نحو صوري بمعزل عن السياق[1]. أما براون Broun ويول Yule فيستعملان النص للإشارة إلى الخطاب الشفهي[2]، خلافا لديفيد نونان الذي يستعمل النص للخطاب المكتوب[3].

وهكذا فقد استعمل بعض اللسانيين الخطاب في الملفوظ، والنص في المكتوب، أو العكس، ومنهم من أطلق الخطاب على كل ما زاد على الجملة سواء أكان مكتوبا أم ملفوظا، ولا أرى جدوى من تتبع اختلاف المحللين في استخدام المصلحين؛ إذ لا مشاحّة في الاصطلاح كما يقولون، بيد أنه لا بُدَّ من أن أذكّر أن ما أريد بالخطاب في هذا المؤلّف هو كل بنية متماسكة مركبة من مضمون إبلاغي أو معرفي أو عقدي أو عاطفي، وشكل ملفوظ أو مكتوب تصدر من متكلم عاقل، وترتبط بغرض ما. ومما روعي في هذا التعريف تعزيز فكرة التلاحم بين المضمون والشكل وعدم الانفصال بينهما؛ وذلك لأن أي محاولة لتكلف فصلهما تؤول إلى تجزئة لبنية الخطاب تفقده

---

(1) Cook, p. 158. And see Nunan, p.6.

(2) G. Brown and G. Yule, Discourse Analysis (Cambridge: Cambridge University Press, 1983). p.6.

(3) See Nunan, p.6.

بعض خصائصه التأليفيّة، كما أنّ التعريف تجاوز فكرة ثنائية اللفظ والمعنى، وأصبح ينظر إلى الخطاب على أنه بنية معقدة تسهم في تأليفها مرجعيّات مختلفة؛ إذ لا يخلو خطاب ما من مرجعية مفسرة له، وقد تكون المرجعية داخلية مستنبطة من خطابات سابقة، وقد تكون خارجية مبعثها وضع اصطلاحي أو منظومة عقلية أو توجّهات عاطفية أو نحو ذلك.

ومثلما يرتبط الخطاب بمرجعيات معينة، فغالبا ما يصدر من منطلقات شخصية أو اعتبارية لا تخلو في معظم الحالات من سمة سلطوية تعززه وتوجهه وتسهم في صوغه على نحو ما، وينبغي أن ينقّى مصطلح سلطوي هنا من إيحاءاته الاستبدادية، وذلك لأننا نستعمله في معناه العقلي المحايد، والمفرّغ من جميع إيحاءاته النفسية: السلبية منها والإيجابية.

ويذكر بيوقراند Beaugrande سبعة معايير للحكم على نص ما بأنه خطاب، وهذه المعايير هي:

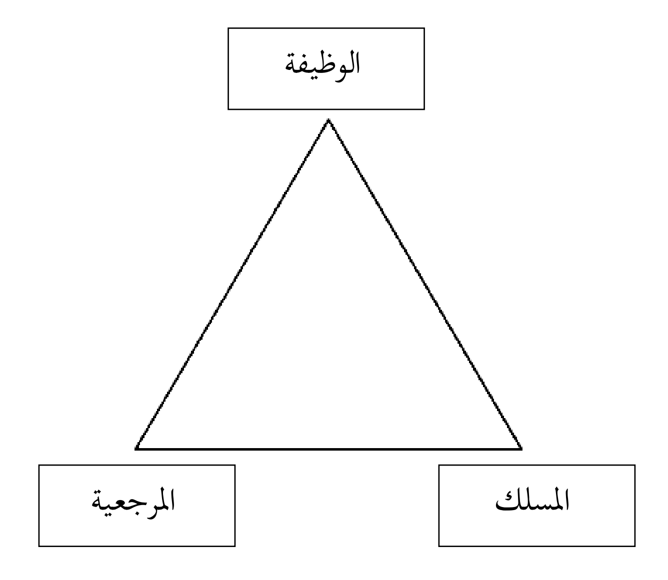
التماسك Cohesion، والاتساق Coherence، والمقصدية Intentionality، والمقبولية Acceptability، والإفادة Informativeness، والمقامية Situationality، والتناص Intertextuality[1]؛ أي أن الخطاب لا بُدَّ أن يكون متماسكا

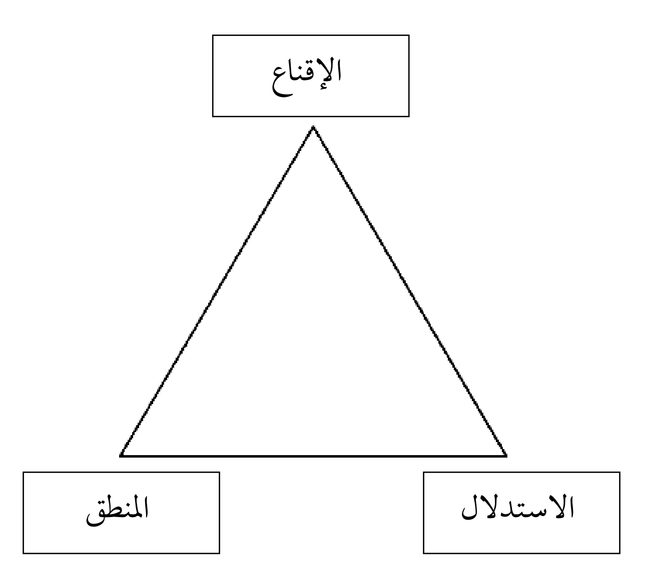
---

(1) De Beaugrande, R., & Dressler, W. U, Introduction to text linguistics (London: Longman, 1981) p.3.

نحـويا وأسلوبيـا، ومتـسـقـا منطقـيـا، وصـادرا عن قـصـد ووعي شعوري، ومقـبـولا تخاطبـيا، ومفـيـدا باحتوائه على مـعلومة أو معلومات جديدة، ومرتبطا بمقام تخاطبي، ومشيرا إلى عناصر خارج النص أو لها صلة ما بالمتخاطبين.

والخطاب ليس شكـلا مـوحـدا، بـل يقـسـم إلـى أجناس مختلفة، ولكل جنس خطابي وظيفة ومسلك ومرجعية، وثمة عـلاقـة بين نوع الجنس الخطابي ونوع الوظيـفـة والمسلك والمرجعية، ففي الخطاب الحجاجي -مثلا- نجد أن الوظيفة هي الإقناع، والمسلك هو الاستدلال، والمرجعية هي المنطق.





وقد ركز البريطانيون في تحليلهم للخطاب – وفق ما يرى مكارثي McCarthy – على الوظائف الاجتماعية للغة، وغلب على موضوعات دراساتهم المناظرات والمقابلات الشخصية والمحادثة بين الطبيب والمريض، في حين اهتم الأمريكيون بخطابات المجتمعات الصغيرة في المقامات الحقيقية للكلام، مع عناية خاصة بتحليل المحادثة والسرديات وأفعال الكلام[(١)]، أما في فرنسا فقد أخذ تحليل الخطاب اتجاها فلسفيا تارة واقْتُحِم من زاوية النقد الأدبي مع عناية خاصة بالتحليل السيميائي تارة أخرى.

---

(1) McCarthy, M,. Discourse analysis for language teachers) Cambridge: CUP, 1991), p.6.

ونظرا إلى تعقّد مضمون الخطاب والآلية المُحدِثة له فإن تحليله يختلف عن التحليل الدلالي للجملة أو القولة؛ إذ يركّز تحليل الخطاب على علاقة النص بما يحيط به آخذا بعين الاهتمام العلاقة بين لغة النص والسياقات الاجتماعية والعقدية والثقافية التي استعملت فيها، وكيف انعكست هذه العلاقة في ثنايا النص، كما يحاول الكشف عن المسالك والوسائل المستعملة في تأليف الخطاب مرورا بالوقوف على الافتراضات التي ينطلق منها المؤلف، وصولا إلى تحليل شخصيته وتفسير أدواته اللغوية، في حين يهتم التحليل الدلالي بالدوال الوضعية والبنية الدلالية للمفردات والجمل.

وينبغي التمييز بين البنية الجزئية للخطاب التي لا يتجاوز موضوعها المصرّف أو الكلمة أو المركب أو الجملة على أبعد تقدير، والبنية الكلية التي تشمل الخطاب كاملا، والبنية الخارجية الموازية التي تشمل المسالك المستعملة والمرجعيات بأنواعها المختلفة، وكل هذه البنيات مشمولة في إطار «البنية الشاملة للخطاب».

٣- مرجعيّات الخطاب:

لا ينبغي أن يَعْـزُبَ عن بالنا أن الإنسان بطبعه كائن اجتماعي مؤسسي، محاط بمؤسسات مختلفة ابتداء من اللغة ومرورا بالقانون والدين والمجتمع، ومن ثَمّ فهو محكوم

بالمواضعات اللغوية، والدساتير واللوائح التشريعية والقوانين والقرارات السلطوية، وأحكام الشرع (عند المتديّنين)، ومتطلبات الوازع الأخلاقي، ومقتضيات الأعراف الاجتماعيّة، وكل ذلك منعكس في اللغة التي نتخاطب بها.

وهكذا فإننا عندما نتعامل مع خطاب ما فإننا في واقع الأمر نستند إلى طائفة من المرجعيات للاحتكام إليها في فهمه، وفي اكتشاف صدقه من كذبه، والوقوف على صحته من خطئه، ومعرفة أبعاده الدينية والاجتماعيّة، وإيحاءاته النفسيّة، ومعطياته الأخلاقيّة، وإدراك أسرار جماله، وغير ذلك من تشعباته وملابساته.

وقد يكون المرجع وضعيّا، أو سياقيّا، أو أصلا من أصول التخاطب، أو آليّة منطقيّة، أو غير ذلك. ولا يمكن للمعنى أن يكون مسوّغا ما لم يكن شرعيّا. والمعنى الشرعي هو معنى مؤسسي يستمد وجوده من واحد أو أكثر من مرجعيّات المعنى، وكل معنى آخر ناشئ عن تأويل يتجاهل تلك المرجعيّات إنما هو معنى لقيط؛ إذ المعاني المقصودة لا تعزل عن مرجعيّاتها؛ لأن منها تكتسب شرعيّتها، ولعلّ معظم شطحات الحداثيين صادرة عن دعوتهم لإلغاء مرجعيات الخطاب بحجة أنها تقيّد حريّة المتلقي، وتحد من التأويل اللامتناهي. ولنتصوّر - إذا ما رمنا دليلا على أهميّة المرجعيّة - ماذا سيترتب على تجاهل التاريخ في لافتة معلقة على محل تقول: «المحل سيفتتح غدا»، فكيف

نعرف اليوم الذي تشير إليه «غدا» إن لم يعرف اليوم الذي كتبت فيه.

ويرى كل من سينثيا هاردي Cynthia Hardy ونيلسون فيليبس Nelson Phillips أن «تحليل الخطاب» يفترض أنه من المستحيل أن نجرّد الخطاب من سياقه الأوسع، ويستعمل تقنيات مختلفة لتحليل النصوص بحثا عن مفاتيح للخطابات التي تضمنتها[١]. ويعدّ فيركلو Fairclough الخطاب «جزءا مشكّلا للسياقات المحلية والعالمية والاجتماعية والثقافية»[٢]. ويذكر أن للنصوص تأثيرات سببية في حياتنا؛ أي أنها تحدث تغييرات فيها على المستوين: قصير المدى (كما في تغيير الاعتقادات والمواقف والقيم) وبعيد المدى (كما في تأثير الإشهار على الهوية الاستهلاكية)، ويذكر أن وسيلة هذه التغييرات ما يسميه بصناعة المعنى meaning-making[٣].

وفيما يبدو له صلة مباشرة بنظرية المرجعيات يربط كانط

---

(1) Nelson Phillips and Cynthia Hardy, Discourse analysis: investigating processes of social construction (London: Sage University, 2002) p.6.

(2) Fairclough N, Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language (London: Longman, 1995), p.29.

(3) Fairclough N, Analysing discourse: textual analysis for social research (London: Routledge, 2003), p.8.

Kant بين الحقيقة وموضوعاتها، ويعرّف الحقيقة بأنها «مطابقة المعرفة لموضوعاتها»، ويرى أنّ الخطأ إنما يكون في المعرفة «عندما لا تتطابق مع الموضوع العائدة إليه»، ويستدرك «لكن من الواضح أنه من المحال إطلاقا، ومن الخُلف أن نطلب علامة لحقيقة مضمون المعارف حين نجرد المعرفة من كل مضمون (من كل تعلق بموضوعها) وحين تتصل الحقيقة بهذا المضمون بالذات»[1].

ويشبه هذا ما فعله علماء التراث عندما ربطوا المعنى بالعائد إليه، الذي هو معنى التأويل عند القدامى من العلماء، وهو المعنى الحقيقي للتأويل. وعدم التطابق يعني التحريف؛ أي الخروج عن الحقيقة بحسب معيار كانط، ولا يمكن الربط بين المعنى وما يؤول إليه بدون الاحتكام إلى المرجعيات المناسبة.

وإذا كان التنوع في المرجعيات يكسب المعنى ثراء، فلا ينبغي أن نبالغ في البحث عن معان أخرى خارجة عن مصادر ثراء المعنى إلا إذا كان المقصود من رحلة البحث عن المعنى السير في عمليات توليدية جديدة بعيدا عن قصد المتكلم، وفي هذه الحال فإننا نعمل في إطار تشييد جديد للمعنى، يمكن أن يعد استئنافا له؛ إذ هو إنشاء مبتدع وليس قراءة، إنه شروع في

(١) عمانوئيل كنط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة (بيروت: مركز الإنماء القومي، د ت)، ص ٧٦.

التأليف وليس امتدادا للتلقي.

ومما يبرهن على أهمية إقحام المرجعيات في تفسير المعنى عجز الحاسوب عن التمكن من اللغة تمكنا تاما كما يفعل البشر؛ وذلك لعجزه عن الإلمام بكل مرجعيات العالم الخارجي التي يحتاج إليه للاستعمال اللغوي، أما كونه يستطيع التخاطب باللغة بنسبة ما فذلك راجع إلى قدرته على إدراك المواضعات اللغوية التي ما هي إلا جزء فقط من المرجعيات المطلوبة للتخاطب السليم. علينا فعلا أن ننظر إلى العالم على أنه «إطار يحيط بالخطاب المحلل ويقدم مصادر لحمله المناسب»[1]، أي أن العالم هو الخلفية التي تنعكس عليها مضامين الخطاب.

ولا يفوتنا هنا التنبيه على أن صوغ الخطاب قد يكون مبنيا على التسامح؛ ولذا فإن الصرامة في تقويمه بناء على المعايير المرجعية قد تتسم في بعض الحالات بشيء من التكلف وربما تكون جورا عليه. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك الحكم على القولة بالصدق أو الكذب في حالات التورية ونحوها.

وقد حاولنا فيما سيأتي من مباحث استقصاء أهم هذه المرجعيات لبيان مدى تأثيرها في التعامل مع الخطاب.

---

(1) Duranti, A. & Goodwin, C. (Eds.), Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon (Cambridge University Press, 1992).

٣، ١- المرجعيّة التخاطبيّة:

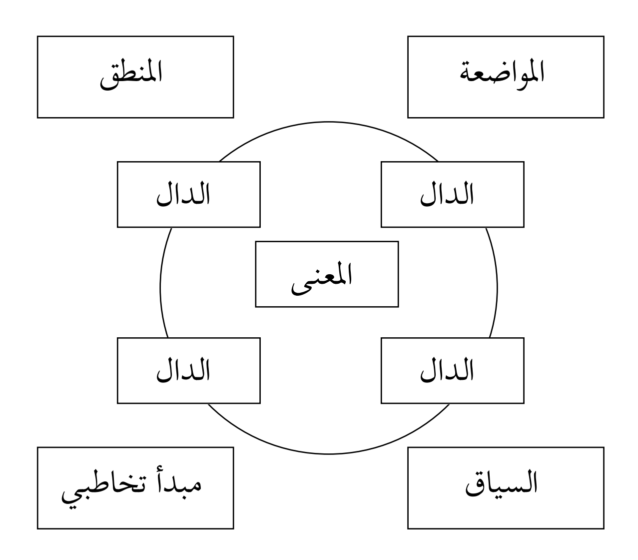
على الرغم من أن المرجعيات ليست مضامين معرفة خالصة فإنها تؤلف الشروط الضرورية لتحقق المعرفة النصية، كما أن القدرة على الربط بين عناصر النص ومرجعيّاته تعدّ شرطا جوهريا لتحقق الكفاية الخطابيّة؛ إذ بدونها لا يمكن الادعاء بأن المتخاطب قادر على التعامل مع الخطاب، وبقدر عجز المخاطب في هذا الأمر يكون إخفاقه في التعامل مع الخطاب، وهو ما يفسر إخفاق الحاسوب في فهم الخطاب على الطريقة البشريّة، وما لم يصل الإنسان إلى نظام آلي يبرمج علاقة عناصر النص بهذه المرجعيات، وهو أمر يبدو مستبعدا في المستقبل المنظور، فستبقى فكرة التحدث مع الحاسوب على الطريقة البشرية من أحلام المستقبل.

ويشمل مفهوم «المرجعيّة التخاطبية» جميع المرجعيّات المعينة على الحمل الصحيح للخطاب، والمقصود بالحمل الصحيح هنا الوقوف على مراد المتكلم[١]، وهو أمر غير ممكن دون إحاطة المخاطب بالمعطيات الوضعيّة للغة التي وقع بها التخاطب، وانتباهه للقرائن الداخلية والخارجية التي نصبها المخاطِب.

---

(1) See Reboul A. & Moeschler J., Pragmatique du discours (Paris, Armand Colin, 1998), p.47.

وتستمد الدوال مدلولاتها من أربعة مصادر أساسية هي المواضعة والسياق والمبادئ التخاطبية والمنطق، ولعل الشكل الآتي يوضح لنا علاقة هذه المصادر بإنتاج الدلالة. فالمواضعة ترتبط بالمعنى الوضعي، والمنطق ينتج لنا الافتراضات ودلالة التضمن، والمبادئ التخاطبية تنتج لنا دلالة المفهوم، أما السياق المستعمل هنا في أوسع معانيه حتى يشمل معظم المرجعيات فهو الذي يقودنا إلى مراد المتكلم.



ويحتاج المرء لكي يتعامل مع الخطاب أن يملك القدر الكافي مما يسمى بالكفاية، وهو ما سنتناوله في المبحث القادم، ولكن قبل ذلك لا بُدَّ أن نشدّد على ارتباط الكفاية بمرجعيات

الخطاب؛ إذ بدونها لا يمكن الولوج إلى مراد المتكلم، وفقدان أيّ عنصر من عناصر الكفاية سيحول دون نجاح عملية التخاطب، لنلحظ أنّه عندما نقلب كلمة «خبز» -مثلا- إلى «زبخ» ونحاول أن نبحث لها عن معنى، ألا نصاب في هذه الحال بخيبة أمل؛ لأن الاحتكام إلى مرجعية الوضع عاد لنا بلفظ فارغ لا يحمل أي معنى، فكيف لنا في هذا الموقف أن نجد فيها معنى إذا ما صرفنا النظر عن المرجعية؟

٣، ١، ١- الكفاية:

يقصد بمصطلح الكفاية competence في الدراسات اللسانية التمكن من اللغة والقدرة على استعمالها، وقد ارتبط هذا المصطلح باللساني المعروف نوام تشومسكي Noam Chomsky ضمن ثنائيته المشهورة «الكفاية والأداء». ويبدو الفرق بين المصطلحين في أن الأول يطلق على القدرة الكامنة في ذهن متكلم اللغة على إنتاج عدد غير محدود من جمل اللغة، وفهمها، وهذا لا يتأتّى إلا إذا اشتمل الذهن على نظام من القواعد (يشمل القواعد الصوتية، والصرفية والمعجمية، ومسردا من المفردات اللغوية يسمى «المعجم»). ويمكن اختبار هذه الكفاية اللغوية بمدى قدرة المتكلم على اكتشاف الأخطاء على المستويات اللغوية المختلفة (الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية)؛ واكتشاف مواطن اللبس في الجمل اللغوية: فكلما

زادت قدرته على اكتشاف الأخطاء، والتمييز بين المعاني المتعددة دلّ ذلك على تمكنه من اللغة. وأما الأداء performance فهو التحقق الفعلي للكفاية عند التخاطب باللغة. وبناء على ذلك، فإن كل أداء يستلزم انتقالا من حيّز الوجود بالقوّة إلى حيّز الوجود بالفعل بحسب المصطلحات المنطقية؛ أي إخراج الكامن إلى الوجود الحسي الفعلي، وتحققه تحققا عمليا. وتستدعي ثنائية الكفاية والأداء إلى الذهن عادة ثنائية فردناند دو سوسور المعروفة بـ«اللغة langue، والكلام parole»، فاللغة هي نظام من العلامات المتواضع عليها اعتباطا، ويستعملها الفرد للتعبير عن أغراضه، والتواصل مع الآخرين. أما الكلام فهو التحقق الفعلي لتلك العلامات عند عملية التخاطب. فاللغة إذن ظاهرة اجتماعية مشتركة بين أفراد المجتمع اللغوي، في حين أن الكلام هو نشاط فردي. ولا شكّ في أن لهذا التمييز بين اللغة والكلام أهمية كبيرة في الدراسات اللغوية؛ لأنه يعين على بناء تصوّر منهجي لحقيقتين مختلفتين تتعلقان باللغة. وتبدو أهمية هذا التمييز -على سبيل المثال- في أن الإلمام به يُجنبنا الاعتقاد الزائف بوجود لغة أبلغ من أخرى؛ لأن المدرك لهذا الفرق يعلم أن البلاغة (ومثلها الفصاحة) مسألة فردية، تتعلق بالكلام، وليس باللغة، وهذا يعني أنه في كل مجتمع لغوي متكلمون بلغاء، وآخرون دون ذلك. وليس للغة صلة مباشرة بالبلاغة والفصاحة، بل هي مسألة كلامية، ومثلما

لا يمكن أن نحسب أخطاء العازفين على السمفونية -كما يذكر دوسوسور-، فكذلك لا يمكن عزو تقصير (أو إتقان) المتكلمين على اللغة نفسها. ومن مزايا هذا التمييز أيضا أنه يمكّننا من التفريق بين معاني الجمل (التي تنتمي إلى اللغة)، ومعاني القولات (المنتمية إلى الكلام)؛ وذلك لأن ما تعنيه كلمات اللغة وجملها ليس بالضرورة مطابقا لمقاصد قولات المتكلمين. ولعلّ ما يبدو لنا من فرق بين المعنى الأصلي والمعنى المقصود في التعبيرات المجازية يؤكد أهمية التفريق بين اللغة والكلام. وهكذا يتضح لنا أن الجمل والمعاني مرتبطة باللغة، والقولات utterances والمرادات (أو المقاصد) متعلقة بالكلام.

وقد عرف علماء أصول الفقه الإسلامي ثنائية مشابهة لثنائيتي تشومسكي ودو سوسور المذكورتين هي ثنائية «الوضع والاستعمال». فالوضع هو عزو معنى للفظ يدل عليه، والاستعمال هو إطلاق اللفظ وإرادة المعنى الوضعي الأصلي أو معنى آخر مقترن بقرينة للدلالة عليه. فالوضع -إذن- عملية سابقة زمنيا وافتراضيا على الاستعمال، وهي من شؤون أهل اللغة، أما الاستعمال فهو عمل يقوم به المخاطِب. والوضع قد يكون فرديا جزئيا كما في تحديد معنى كلمة بعينها في اللغة، نحو أسد في دلالتها على الحيوان المفترس المعروف، وقد يكون عاما كليا يتعلق بصوغ قاعدة كلية أو بناء نمط عام لتركيب ما. وفي كل الأحوال فإن متكلم اللغة محكوم بمواضعات لغوية

سابقة، وضوابط ومبادئ استعمالية تعينه على أداء عملية التخاطب بنجاح.

لا شك في أن ثمة فروقا واضحة بين الثنائيات الثلاث: «الكفاية والأداء»، و«اللغة والكلام» و«الوضع والاستعمال»، منها مثلا

١- أن الكفاية مفهوم يرتبط بما ذهب إليه تشومسكي من أن كل البنى النحوية، والمفهومية التي تجسد المعرفة اللغوية للبالغين موجودة في الأذهان منذ الولادة، كما يرتبط أيضا بفكرة تشومسكي للغة على أنها «طائفة من الجمل (المتناهية، أو غير المتناهية)، كل جملة متناهية في طولها، ومركبة من مجموعة متناهية من العناصر»[1]. وتؤول ظاهرة اللاتناهي infinity إلى القول بأن ما يحمله المتكلم في ذهنه من الجمل الممكنة أكثر بكثير من القولات التي قيلت بالفعل. وهذا يعني أن المهم في اللغة إنما هو الجانب الإبداعي غير المحدود لمعرفة المتكلم السليقي للغته. كما يعني أيضا أن الكفاية اللغوية هي التمكن من تطبيق ما يسميه تشومسكي «القواعد العمومية» التي يزود بها

(1) Chomsky, N. (1957). Syntactic Structures (The Hague: Mouton Publishers, 1957), p.13.

الإنسان بالفطرة على جمل لغة بعينها، مع مراعاة ما تقتضيه مواضعات تلك اللغة. أما اللغة عند دو سوسور فهي خزانة من المعجم والقواعد المنظمة الموجودة وجودا كامنا على نحو مستقل. ولذلك فإن عناية اللسانيين ينبغي أن تتوجه إلى ما هو موجود بالفعل وليس إلى القدرات الكامنة للمتكلمين.

٢- أن الوضع عند الأصوليين لا يعادل اللغة ولكنه يرتبط بها ارتباطا وثيقا؛ لأن اللغة إنما هي نتاج عمليات متوالية من المواضعات اللغوية (المعجمية منها والقواعدية).

٣- أن الأداء عند تشومسكي والاستعمال عند الأصوليين يعبران عن الحدث في حين يقصد بالكلام عند دو سوسور نتاج الحدث، (أي أنه بتعبير النحاة من باب إطلاق اسم المصدر، وإرادة اسم المفعول). أما البراغماتيون pragmatists فيعنون بعملية الاستعمال عناية كبيرة، بل إن كلمة pragmatics نفسها تعني «علم الاستعمال؛ ولذا فإن الكثير منهم يرى أن التخاطب عملية لا تخلو من إخبار، أو استفهام، أو تسمية، أو نحو ذلك مما يسمونه بأفعال الكلام speech acts، وبذلك يتطور المفهوم الجامد للكلام - كما شرحه دو سوسور - إلى عمل إيجابي يأخذ طابع الاستعمال، وهو أمر يتيح إقحام مصطلحات ديناميكية أخرى تحل محل نظائرها الجامدة في تراث دو سوسور ربما

كان من أهمها استخدام مصطلح القصد intention بدلا من المعنى meaning، وأصبح موضوع الدراسة تحليل المحادثة conversation والنص بدلا من الجملة، وأضحى اللسانيون يبحثون في مبادئ (أو أصول) التخاطب principles of communication لبلوغ كنه مراد المتكلم بدلا من الاقتصار على البنى اللغوية المجردة. وعلى الرغم من وجود تلك الفروق بين الثنائيات الثلاث: «الكفاية والأداء»، و«اللغة والكلام» و«الوضع والاستعمال» فإن الجامع بينها هو إجماعها على التمييز بين مستويين مختلفين من الوجود اللغوي: مستوى وضعي اجتماعي كامن في أذهان المجتمع اللغوي عامة، ومستوى استعمالي فردي متحقق في المقام التخاطبي. لقد انتقد كلَّ ثنائية من الثنائيات الثلاث السابقة أولئك الذين يذهبون إلى أن المواضعات اللغوية لا تتم على نحو انعزالي تجريدي خارج المقامات التخاطبية، ومن هذه الانتقادات صعوبة عزو بعض السمات التخاطبية (كالمجاز، والتنغيم، ونحوها) إلى أي من هذه الثنائيات، وقد تكون الإجابة عن هذه الانتقادات أن تلك السمات تتعلق جزئيا باللغة، وتنتمي جزئيا إلى الكلام أو الاستعمال. فبينما تكون الأنماط، والمناويل والقوالب التجريدية محكومة باللغة، ترتبط تحققات تلك الأنماط المتمثلة في القولات الفعلية إلى الكلام. وعلى أي حال،

فإن ثمة شعورا متناميا بين اللسانيين والمهتمين بالتخاطب إجمالا، ولاسيما البراغماتيين منهم بأن الكفاية اللغوية وحدها ليست كافية لنجاح عمليات التفاهم اللغوي، بل لا بُدّ من وجود الكفاية التخاطبية، التي تشمل

أ - معرفة المواضعات اللغوية (المعجمية منها والقواعديّة)،

ب - قدرة المتخاطبين على الاستنتاج المنطقي المرتبط بسمات اللغة،

ت - معرفة المتخاطبين بأصول التخاطب.

ويعد كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة مصدرا ومفسرّا لنوع أو أكثر من أنواع المعنى، فالمواضعات اللغوية يستنبط منها المعنى الوضعي، كما أن لها صلات (متفاوتة القوة) باستنباط المعاني الأخرى. والاستنتاجات المنطقية ترتبط بالمعاني المنطقية، كالتضمن، وكثير من حالات الافتراض. أما أصول التخاطب (أو مبادئ التعاون كما يسميها بول قرايس) فتعين على استنباط المفاهيم التخاطبية، مثل مفهوم المخالفة عند الأصوليين. فعندما تصدر الجامعة قرارا يقول: «يجوز للطلاب الخريجين في هذا الفصل أن يستعيروا أربعة كتب»، فقد ألزمت الجامعة نفسها بإعطاء الإذن لمن سيتخرج من الطلاب في هذا الفصل أن يستعير أربعة كتب، وهذا المعنى مفهوم من منطوق الكلام، ومستنبط من معاني العناصر المعجمية، والقواعدية (الصوتية والصرفية والنحوية) التي تضمنتها الجملة، بيد أن

هذا المعنى ليس هو المعنى الوحيد المستمد من هذه الجملة، بل يمكننا أيضا أن نستنتج عددا من المعاني الأخرى، منها

١) أن لدى الجامعة طلابا خريجين في هذا الفصل،

٢) أن لدى الجامعة بشرا،

٣) أنه لا يجوز لغير الخريجين استعارة أربعة كتب،

٤) أنه لا يجوز للخريجين استعارة أكثر من أربعة كتب.

فالمعنى (١) ليس من منطوق الكلام، بل يفهم من الافتراض، وهو معنى يستنتج استنتاجا منطقيا (وإن كانت له جوانب أخرى ثقافية أحيانا)، وهو معنى قطعي، ولذا لا يجوز إبطاله دون الوقوع في تناقض: إذ لا يجوز أن يقال في لائحة الجامعة المذكورة «ليس لدينا طلاب خريجون في هذا الفصل» أو «لن يتخرج أحد في هذا الفصل» إلا بالوقوع في تناقض. ومن هذا النوع من المعنى قولك: خرج الأستاذ من الفصل» الذي يفترض دخوله فيه، و«تاب صديقي عن الكذب» الذي يفترض أنه كان يكذب، و«أوقف أخي قيده في الجامعة» الذي يفترض أنه كان مسجلا فيها. وكما سبق أن أشرنا، فإن مثل هذه الافتراضات هي من قبيل المعاني المنطقية التي تحتاج إلى قدرات استنتاجية لا يمكن بدونها حصول التفاهم؛ ولذا فإن التمكن منها مندرج ضمن «الكفاية التخاطبية». أما المعنى المنصوص عليه في (٢) فهو من قبيل التضمن، وهو أيضا معنى منطقي قطعي لا يمكن إلغاؤه إلا بالوقوع في التناقض، ولذلك

لا يجوز أن يقال: «ليس لدينا بشر في الجامعة»؛ لأن كلمة «طالب» تتضمن معنى «بشر»، وكلما أثبتت كلمة «طالب» فهم منها معنى «بشر»، كما أن أي نفي للبشرية يتضمن نفي صفة «طالب». وأما المعنيان (٣) و(٤) فمن قبيل المفاهيم الخِطابية، أو «التخاطبية»، التي تفهم من أصول التخاطب، وتتسم هذه المعاني بقبولها الإلغاء؛ وذلك لضعفها وظنيتها، ولذا يجوز إلغاؤها بأن يقال مثلا: «كما يجوز لغيرهم أيضا»، و«بل يجوز للخريجين استعارة أكثر من أربعة كتب» دون الوقوع في تناقض. ويستنبط هذا النوع من المعنى بالاعتماد على ما يعرف بمبدأ الكم (وهو أصل من أصول التخاطب، ومبدأ من مبادئ التعاون)، الذي يفترض أن المتكلمين يتكلمون على قدر الحاجة، دون زيادة، أو نقصان، ومن ثمّ فيتوقع من المخاطب الذي قرأ ما سبق من لائحة الجامعة أن يفكر على النحو الآتي: لو كان المقصود أن كل طلاب الجامعة يحق لهم استعارة أربعة كتب، لقيل «يجوز للطلاب هذا الفصل أن يستعيروا أربعة كتب»، ولكن لمّا قيّدت كلمة «الطلاب» بالخريجين، فُهِمَ من هذا القيد أن المسكوت عنهم «وهم غير الخريجين» لهم حكم مخالف، وهو أنهم لا يحق لهم استعارة أربعة كتب، ومن هنا جاءت تسمية الأصوليين لهذا المعنى بمفهوم المخالفة. وأخيرا يمكن أن نلخص ما سبق بالقول بأن التخاطب الناجح لا يكتمل إلا بوجود أربعة أنواع من الكفاية هي:

أ - كفاية الملكة اللغوية: وهي قدرة المتخاطب بوصفه إنسانا على التحدث بلغة ما (أي لغة واحدة أو أكثر من اللغات المعينة التي تعلمها في حياته)، وهي قدرة فطرية وراثية يولد بها كل إنسان، وهي التي يسميها دو سوسير «اللغة الملكة» langage.

ب - الكفاية اللغوية: وهي التمكن من مواضعات لغة معينة من معجم وقواعد إلى الحد الذي يمكنه التحدث بها. ويندرج في هذه الكفاية الإلمام باللغة العرفية المرتبطة بفئة اجتماعية والاصطلاحية المرتبطة بعلم من العلوم.

ت - الكفاية التخاطبية: وهي القدرة على الجمع بين مواضعات لغة معينة مع متطلبات المنطق اللغوي ومبادئ التخاطب، ولا يمكن لأي متخاطب أن يستعمل اللغة دون أن يمتلك هذه الكفاية؛ إذ بدونها لا يستطيع استنتاج بعض الدلالات المنطقية كالتضمن والافتراض، أو الدلالات التخاطبية كمفهوم المخالفة ودلالة الإشارة، ودلالة التنبيه والإيماء.

ث - الكفاية الخِطابية، وهي أعلى أنواع الكفايات، ولا يشترط وجودها في كل متكلم، ولكن التزوّد بها يمكّن المتخاطب من التعمق في فهم الخطاب وملابساته وأبعاده، وتحليله بما يملك من قدرة على التمييز بين أنواع الخطاب، ومعرفة بمسالكه وأغراضه، وإدراك للمرجعيات المختلفة التي يحيل

عليها النص، والربط بين عناصر النص وما يلائمها من المرجعيات. وهكذا فإن إدراك المرجعيات هي إحدى الكفايات المنضوية تحت الكفاية الخطابية، ولكنها تتصل أيضا بالكفاية التخاطبية.

٣، ٢- المرجعيّة الواقعيّة:

لا يمكن أن يعدّ الخطاب خطابا إذا لم يرتبط بسياق؛ إذ السياق هو مصدر الإفادة في الخطاب، وهو الحاضن له، والمرجع الذي يستند إليه المخاطَب في تعامله معه. ويبدو أن التصور السليم للسياق هو أن نراه «عالما مملوءا بأناس ينطقون بأقوال: أناس لديهم هويات اجتماعية وثقافية وشخصية، كما لهم اعتقادات ومعارف وأهداف وإرادات ويتفاعل بعضهم مع بعض في مختلف المواقف المحددة اجتماعيا وثقافيا»[(١)] .

ومازلت أصر على تبني عبارة كتبتها منذ أكثر من عقدين من الزمن تصف تأثير السياق على الكلمات وهي أن الكلمات

---

(1) Deborah Schiffrin, Approaches to discourse, (Cambridge, MA & Oxford: Blackwell, 1994), p.364. See also Alexandra Georgakopoulou, Dionysis Goutsos, Discourse analysis: an introduction, (Edinburgh : Edinburgh University Press, 2004), p. ix & p.17.

ليست «كالماء الذي يخضع لونه للون إنائه، وإنما هي كالحرباء التي تتلوّن بلون المكان الذي تحلّ فيه؛ أي أنّ الكلمة أشبه بالحرباء تمتلك إمكانات معيّنة، كلّ منها يبرز في موضعه المناسب، وليست كالماء الذي لا يملك شيئا من تلك الإمكانات، وإنّما يخضع لما يفرض عليه من الخارج»[١] .

لقد انتبه عدد من الفلاسفة واللسانيين إلى التبادل الإحالي بين الخطاب والعالم الخارجي، وهو أمر ليس من العسير تفسيره لأن الخطاب - كما تذكر بربارا Barbara- «ينشأ من العالم أو العوالم التي يفترض وجودها خارج الخطاب؛ أي عوالم مُحْدِثي الخطاب ومفسريه. (...) والخطاب الذي لا يشير إلى شيء يصعب حمله على محمل ما، ومن المرجح أن ينظر إليه على أنه هراء أو جنون أو هو نتيجة لتجربة لغوية غريبة».[٢] ومثلما أثبت لنا فلاسفة القرن العشرين ومنهم فوكو

---

(١) محمد محمد يونس عليّ، وصف اللغة العربية دلالياً: دراسة حول المعنى وظلال المعنى (طرابلس ليبيا: منشورات جامعة الفاتح، ١٩٩٣). ص ١٠٥- ١٠٦.

(2) Barbara Johnstone, Discourse Analysis (Oxford: Blackwell, 2002), p.10.

Foucault[١]، والبـلاغـيـون مـثـل بورك Burke[٢]، واللسـانيـون كسابير Sapir[٣]، وورف Whorf[٤]، مرة بعد أخرى فإن العكس أيضا صحيح: أي «أن العوالم البشرية يشكلها الخطاب»[٥].

إن إدراك العلاقة بين محتويات الخطاب ومحتويات العالم الخارجي ليست من السهولة بمكان، لأنها عادة ما تتم عبر وسيط ثالث هو الإدراك الذهني فضلا عن كون اللغة تعبر عن مدركات لغوية خاصة أكثر من تعبيرها عن حقائق ثابتة ومؤكدة في العالم الخارجي، فلو تصورنا -مثلا- كوبا أزرق صغيرا مملوءا بالماء، وبجانبه كوب متوسط شفاف مملوء بالحليب،

---

(1) Foucault, Michel, Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings 1972-1977,. Colin Gordon ed, (New York: Pantheon, 1980).

(2) Burke, Kenneth, A Rhetoric of Motives (Berkeley: California: University of California Press, 1969).

(3) Sapir, Edward. Language: An Introduction to the Study of Speech (New York: Harcourt, Brace, 1921).

(4) Whorf, B. L, Language, Thought, and Reality, Edited J. B. Carroll (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1956).

(5) Ibid. See also Alexandra Georgakopoulou, Dionysis Goutsos, Discourse analysis: an introduction, p. ix & p.11.

وبجانبه كوب كبير أحمر مملوء بالعصير، فبإمكانك وأنت تشير إلى كوب الحليب أن تطلب من جليسك أن يناولك:

١- الكوب المتوسط

٢- الكوب الشفاف

٣- كوب الحليب

٤- الكوب المملوء بالحليب

٥- الكوب المتوسط الشفاف المملوء بالحليب

٦- الكوب المتوسط الشفاف

٧- الكوب المتوسط المملوء بالحليب

٨- الكوب الشفاف المملوء بالحليب

وفي كل من هذه التعبيرات وأمثالها أنت تصف الكوب بطريقة ما، ولا تصف حقيقة خارجية ثابتة. وعلى الرغم من أن أوصافك المختلفة لما تشير إليه يؤدي المهمة التخاطبية بتمكين مخاطبك من الوقوف على مقصودك، فإنه لا يحق لك الادعاء باستخدامك لأي من هذه التعبيرات أنك تعرف ما تشير إليه تعبيرا علميا مطابقا. وكل هذا يدل -من بين دلالات أخرى- على أننا نعبر -كما يذكر راسل[١]- عن مدركات أو متصورات

(١) برتراند راسل ، ما وراء المعنى والحقيقة ، ترجمة محمد قدري عمارة ، مراجعة الهادي جلال عمارة (القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥) ، ص ١٥٨-١٥٩ .

وليس عن حقائق، وأنه قد يكون للكلمات من الإحالات الذهنية أكثر مما لها من مراجع خارجية.

فلا يمكن الادعاء -إذن- أن الحقيقة موجودة في الواقع فقط، بل إن واقع التخاطب يبرهن على أن الحقيقة موزعة بين اللغة والواقع، وكل منهما يستشهد به للحكم على الآخر، ولعل هذا الموقف الوسطي بين اللسانيين والفلاسفة الوضعيين من جهة والحداثيين ونقاد الأدب من جهة أخرى يحد من سمة التطرف التي يتسم بها الطرفان.

لقد عرف المناطقة والفلاسفة واللغويون وعلماء البلاغة في تراثنا ما يسمى بالنسبة الخارجية للكلام في مقابل ما يعرف بالنسبة الكلامية، ويطلق اللسانيون وفلاسفة اللغة المحدثون على النسبة الخارجية مصطلح «اشتراطات الصدق»، ويربط عادة بين هاتين النسبتين: الكلامية والخارجية، ولا يكون الكلام صادقا إلا إذا تطابقت النسبتان، وما يهمنا هنا هو البرهنة على أن الاهتمام بمرجعية الكلام لم يكن أمرا طارئا في اللسانيات الحديثة، غير أن الاهتمامات السابقة كانت تركز على مرجعية المطابقة لغرض قياس مدى صدق الكلام من عدمه، وسنبرهن في هذا المؤلّف على أن المعايير التي يحكم عليها في تقويم النص تتجاوز مسألة الصدق والكذب، وتتعداه إلى معايير أخرى كثيرة يستند فيها إلى مرجعيات متعددة، وقد حاولت في الجدول الآتي أن أستقصي معظم المرجعيات التي

يحتاج إليها في التعامل مع النص قراءة واستيعابا ونقدا وتحليلا.

جدول المرجعيات

عناصر النص	مرجعيات النص
إحالات النص الصريحة	الوضع
إحالات النص غير الصريحة	مبادئ التخاطب
تضمنات النص وأغلب افتراضاته	المنطق
إشارات النص	السياق الداخلي والخارجي
مقاصد النص	القرائن
صحة النص القواعدية	النحو والصرف
حجية النص، ومقبوليته	المنطق، والحجاج
صدق النص	محيط الإشارة، منطقية
	الخطاب، مصداقيّة المخاطب
أسرار جمال النص	البلاغة والأسلوبية
تحليقات النص	المخيال الفردي والاجتماعي
شرعية أحكام النص	الشرع والقانون
دلالات النص الخاصة	عادة المتكلم بكلامه
دقة المعلومات	الحقل العلمي المناسب
معاني النص الاصطلاحية	الحقل العلمي المناسب

مفاهيم النص وآراؤه	الحقل العلمي المناسب
دلالات النص الاجتماعية	الأعراف والثقافة الاجتماعية
دلالات النص النفسانية	علم النفس
أخلاقيات النص	الشرع والقانون والضمير والأعراف
سلطة النص	المخاطِب والخطاب والمخاطَب والإيديولوجيا
فرادة النص	عدولاته المسوّغة
شذوذ النص	انتهاك مرجعياته المؤسسية
اقتباسات النص وتوليداته	التناص

ولا بُدَّ من التفريق هنا بين الإفادة والإعلام فالإفادة ترتبط بالمعنى ومرجعياته، وبناء على ذلك لا تكون للقولة معنى إذا انفكت عن الوضع وفرعيه وهما المنطق ومبادئ التخاطب، أما الإعلام فيرتبط بالحقائق ومرجعياتها المتمثلة في العوالم الخارجية والعوالم الممكنة.

ويمكن أن نذكر هنا التمييز المشهور بين نوعين رئيسين من السياق: السياق الداخلي، وهو كل العناصر اللغوية السابقة واللاحقة للعنصر موضوع الحمل، أما السياق الخارجي فهو كل العناصر غير اللغوية التي ينصبها المتكلم، أو يراعيها المخاطب عند تعامله مع الخطاب.

٣، ٣- مرجعية النص:

عادة ما يكون الخطاب الشامل سياقا ثقافيا عاما لأجزائه المكونة له؛ ومن ثَمّ لا يمكن أن ننظر إلى قولة أو تصريح ما بمعزل عما يقتضيه الإطار العام للنص الذي يشكل المرجع المفسّر لتلك الأجزاء، ومما يحتاج إليه محلّل الخطاب النظر في السياق العام للنص بما في ذلك سياق النظائر، وهو السياق المتحكم في جزئياته، الذي به تؤول شواذه الخارجة عنه للمحافظة على تماسكه، ووحدته المنطقية والموضوعية والدلالية. ويمكن عد ما نسميه «سياق النظائر» جزءا من عادة المتكلم بكلامه، وهذا السياق يندرج في العلاقات العمودية بين العناصر التخاطبية، في حين يندرج السياق الداخلي ضمن العلاقات الأفقية الخطية.

ومن المهم أن نعي أن الخطاب لا يحد بجملة أو أكثر -كما رأينا في بعض التعريفات السابقة- إذ قد يقتصر الخطاب على جملة واحدة فقط كما هو الحال في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة. ولعله من نافلة القول أن نذكّر بأن بعض أجزاء الجملة قد يحذف دون أن يمنع ذلك الحذف من عدّ المذكور خطابا مادام ثمة من القرائن ما يدلّ على تقدير المحذوف.

٣، ٤- مرجعيّة المحيط:

ثمة فرق بين المعنى والحقيقة تابع لاختلاف مرجعية كل

منهـمـا، فـبـينـمـا مـرجـعـيـة المعنى هي الوضع والمنطق والمبادئ التخاطبية فإن مرجعية الحقيقة هي المحيط الخارجي والذهني فـضــلا عن الـسـيــاق الداخلي للنص. ولتـوضـيـح ذلك يمكن التمثيل بنحو باب الغرفة مفتوح، التي يتحدد معناها بدلالة عناصرها المعجمية وبنياتها النحوية والصرفية والدلالية في حين يحكم على صدقها أو كذبها -كما تقدم- بالنظر إلى النسبة الخارجية لهذه القولة، فإن تطابقت النسبة الخارجية (وهي كون الباب مفتوحا بالفعل في الواقع) مع النسبة الكلامية كانت القولة صادقة، وإن اختلفت النسبتان بأن كان الباب مغلقا في الواقع كـانت القـولة كـاذبة، على أن الأمـر ليس دائمـا بهـذه السهولة فقد يعتقد المتكلم أن الباب مفتوح مع أن الأمر ليس كذلك، وهنا يبرز الخلاف المعروف في التراث في مرجعية الصدق أهو الواقع أم اعتقاد المتكلم؟ ومن الصعوبات الأخرى التي تثير شيئا من الجدل أن بعض المعاني ليس لها نسبة خارجية كالمجردات والافتراضات والمستقبل والإنشاء. كما أن قضية النسبية تثير مشاكل من نوع آخر، وذلك لأن بعض التسميات المكانية تخلو من الموضوعية والحياد وتعكس تمركزا حول الذات كـمـا هو الحـال عندمـا يسـمي الأمـريكان بعض مناطق العالم الشرق الأقصى، والشرق الأوسط مثلا، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا شرق بالنسبة إلى من؟ وإذا كان شرقا بالنسبة إلى الأمريكان؟ فما مسوّغ استعماله عندنا؟ ولعلّ مثل

هذا النوع من المشاكل هو ما أرغم برتارند راسل على القول بأن «من مثاليات العلم التخلص من أسماء الإشارة» .[١]

وفي سياق الحديث عن الإشارات المكانية والزمانية والشخصية لا بُدَّ من التذكير أن الظروف وأسماء الإشارة والضمائر لا يمكن تفسيرها دون معرفة مراجعها، كما في قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم -عليه السلام-: ﴿قال: بل فعله كبيرهم هذا﴾ (الأنبياء: ٦٣) التي تقتصر إحالاتها على مفاهيم عامة يُعين في فهمها الوضع اللغوي، ولا يتضح المقصود بها إلا بفك رموز إشاراتها أي بتحديد مراجع تلك الإشارات.

وكذلك، فإن معرفتنا ما يجري في محيطنا الفيزيائي قد يفيدنا في تحديد الخيار بين حمل اللفظ على ظاهره أو تأويله بما يلائم المحيط، فعندما يهب المالك ماله لأولاده، ثم نكتشف في واقع الأمر أنه ليس له أولاد أحياء ولكن له أحفاد، فسنضطر إلى تأويل كلامه على أن المقصود أحفاده، وفي نحو قوله -صلى الله عليه وسلّم- «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان»[٢] سنضطر إلى تأويله بأن المقصود أن الموضوع هو إثم الخطأ والنسيان وليس الخطأ والنسيان نفسيهما؛ لمخالفة ذلك للواقع.

وفي العملات المشتركة اللفظ كالدينار فإن ما يحدد

(١) برتراند راسل ، ما وراء المعنى والحقيقة ، ص ١٣١ .

(٢) ابن كثير ، إرشاد الفقيه ، ٩٠/١ .

المقصود بها إنما هو المكان الذي تستعمل فيه، ففي ليبيا تكون العملة المقصودة الدينار الليبي وفي الأردن يصبح المقصود الدينار الأردني، وهكذا الأمر في تونس والكويت والعراق والجزائر. ومما يحكى في هذا السياق أن أحد الأزواج الغاضبين على زوجاتهم بسب سوء طبخها وضع في المطبخ لافتة مكتوبا عليها «إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»، فأخذت المرأة تلك اللافتة وعلقتها على الحائط الملاصق للسرير في غرفة النوم. وهذا مثال يبين لنا بجلاء كيف يختلف الخطاب نفسه بعد نقله من مكان إلى آخر.

٣، ٥- المرجعيّة الفنيّة ومرجعية المخيال:

قد يعدل مؤلف الخطاب عن المعطيات الوضعية ويجنح إلى المجاز لإقناع القارئ أو إمتاعه أو توضيح أفكاره أو التأثير فيه، و يتوسّل في ذلك بالتشخيص أو التجسيم أو تراسل الحواس أو الترميز أو غيرها من أمثال هذه الأدوات الفنية لتحقيق تلك الأغراض.

ويستعين محلل الخطاب بكفايته الخطابية للتمييز بين أجناس الخطاب ولكشف أسراره الجمالية. وعلى الرغم من الاختلاف البيّن في رسم معايير جمال النص وبلاغته، لا يبعد أن يكون أهم أسرار الخطاب تأليفا وتلقّيا ودلالة وقراءة وتحليلا هو تقاطع محور الاستبدال مع محور الائتلاف، فهو

المولّد للدلالة، وهو معتمد البلاغة، وهو الكاشف عن المعنى، وهو المفسر للقراءة، والمنتج للخطاب، وهذا التقاطع ليس عبثيا أو عشوائيا بل هو إرادي قصدي، وهو ما يؤكد قصدية الخطاب. ويرتبط الاستبدال بالتصور والائتلاف بالتصديق، والاستبدال محكوم بالمعجم والائتلاف بالقواعد والأسلوب. ففي الاستبدال يختار المخاطِب ما يناسب مقصده من الخيارات الممكنة بالتزامن مع عملية الائتلاف التي تنظم فيه العناصر اللغوية على نحو بديع في إطار مرجعية المخيال التي تؤلف فيها الاستعمالات المجازيّة بدعم من القرائن أو السياق، وربما كان من وظائف الرقابة العقلية المقيدة للمخيال البحث عن ذريعة تخاطبية تسوّغ العلاقة الجديدة التي أبدعها المؤلف في ضوء العوالم التخيلية الممكنة، وتعمل مرجعية المخيال بالموازاة والتكامل مع المرجعية الفنية المحكومة بالذوق الجمالي للمتلقي أو محلل الخطاب. وقد تكون هاتان المرجعيتان أكثر المرجعات هشاشة وأقلها موضوعية وقد تستغل في نقد نظرية المرجعيات، ولكن الرأي المنصف لا ينبغي أن يتجاهل الطبيعة الرخوة أو المائعة للمجاز، وهو ما يخلق تحديا حقيقيا لأي نظرية في تحليل الخطاب.

٣، ٦- المرجعية النفسيّة:

من المكونات المهمة للخطاب البشري البنية النفسية الشعورية واللاشعورية لمؤلفه؛ ولذا فإن إغفال هذا الجانب قد يفقدنا مدخلا للولوج إلى شخصية صاحبه، كما أن سيكولوجية الخطاب مدخل جيد لدراسة بواطن النص بطريقة علمية، فضلا عن كونها تعوضنا عن أي نظرية للقراءة الباطنية أو المُغرضة للنص.

فالخطاب البشري ما هو إلا إعادة إنتاج لمعارف وآراء وافتراضات ممزوجة في كثير من الأحيان بدوافع ورغبات ونزوات ومخاوف وأهواء وميول واهتمامات وعقد سيكولوجية، ومن الممكن -باتباع مقاربات مختلفة في التحليل النفسي- الكشف عن المكنون المختزن في ثنايا الخطاب، سواء بادر المؤلف بإخفاء ذلك المكنون أو لا، كما يمكن أيضا فك الامتزاج بين الأفكار والأهواء، وبين المفصح عنه والمكبوت فيه.

٣، ٧- المرجعية الاجتماعيّة والإيديولوجية:

لمّا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية فليس غريبا أن يشتمل الخطاب على عناصر اجتماعية وإيديولوجية يمكن تفكيكها باتباع المنهج النقدي لتحليل الخطاب Critical Discourse Analysis، ولا يمكن فهم الخطاب دون الرجوع إلى شبكة

العلاقات الاجتماعية التي تحكم أفراد المجتمع اللغوي، بما في ذلك الهوية والسلطة والنظام السياسي والإيديولوجيات السائدة والصراع الفكري والسياسي، وعلاقات القرابة والمصاهرة، والزواج والطلاق، وغيرها من المرجعيات الاجتماعية التي يشير إليها الخطاب.

ومثلما هو الحال في معظم المرجعيات -إن لم يكن في جميعها- فإن العلاقة بين الخطاب والإيديولوجيا علاقة ذات اتجاهين: فكما يؤثر الخطاب في الإيديولوجيا فهي تؤثر فيه، وكذا فإن كليهما يكشف الآخر. أما تأثير الخطاب في الإيديولوجيا فإنه يبدو في تغذيتها في أذهان المخاطبين والترويج لها أو تفنيدها ومحاربتها، وربما لا نبالغ إذا ما قلنا: إن العامل الحاسم في بناء علاقات السلطة والهيمنة والاستغلال والاستعباد والغزو الفكري هو الصياغة المناسبة للخطاب. وأما تأثير الإيديولوجيا في الخطاب فإنه أمر غير خاف؛ لكونها أهم المرجعيات المضمونية للخطاب، وهذه المرجعية تنعكس فيما يتضمنه النص من ديباجة ومصطلحات ومفاهيم واقتباسات وشواهد وأدلة وأمثلة وآراء وقيم ومسلمات وافتراضات، وما يركز عليه النص وما يهمله، وبناء عليه من المهم أن نحرص على أن نفسر بنيات الخطاب في إطار المناخ الإيديولوجي الذي ينطلق منه المؤلف.

وفي البيئات الاجتماعية المتدينة لا يمكن أن يغفل محلل

الخطاب (كما لم يغفل مؤلفه من قبل) أن يقوّم محتوياته ومضامينه من حيث معايير (الحرام، والحلال، والواجب، والمباح). وفي كثير من المنازعات الزوجية يستعين أحد الزوجين بالفقيه ليفتي له في حكم عبارة قالها الزوج مثل «أنت طالق» «عليّ اليمين لن تذهبي إلى بيت أبيك» إلخ، وفي مثل هذا الحال فإن المرجعية الفقهية أو الشرعية هي الفيصل في تحديد الآثار الاجتماعية المترتبة على ما نطق به الزوج؛ أي أن قّوة الخطاب الإنجازية مرتبطة بما يقوله الدين في مثل هذا المقام.

ولا يخفى ما للعلاقات الاجتماعية بين المتخاطبين من تأثير في تفسير الخطاب، فهناك فرق بين عبارة أن يقول الزوج «أنا لست بسارق» لقاض في المحكمة، وبين أن يقولها لخصمه في نزاع؛ إذ في الثانية -خلافا للأولى- يمكن أن تفهم على أنها تعريض بخصمه، واتهام له بالسرقة. ومما يؤكد أهمية الإلمام بشبكة العلاقات الاجتماعية في فهم الخطاب سهولة التخاطب بين المتآلفين كالطبيب والمريض، والزبون وموظف الخزينة، والبائع والمشتري، وأفراد الأسرة الواحدة مقارنة بما يحدث بين الأغراب؛ إذ يصبح الحديث في هذه المحادثات ونحوها أقرب إلى القولبة، يقول روبير مارتان Robert Martin تعليقا على نحو ذلك: إن «معارفنا للكون ومعطيات الوضع تصبح جزئيا قابلة للدمج في «حساب المعنى» إما لأن النص

بيّنها أو لأنّ الوضع له صفة مقنّنة اجتماعيّا»[١] .

ولّما كان الخطاب يعبر عن مضمون فكري أو عاطفي أو هما معا، فإنه من المعقول القول بوجود علاقة طرديّة بين هيمنة الرأي على المعلومة في خطاب ما وزيادة شحناته الإيديولوجية؛ إذ كلما ازدحم الخطاب بآراء المؤلف زاد حِمله الإيديولوجي.

ويسعى المخاطِب إلى استخدام مسالك جملية ونصية لنقلها بين الفئات والطوائف والمذاهب والأيدولوجيات والأعراق، وهذا يؤول إلى القول بأن الخطاب يقتضي المخالفة مع خطابات أخرى؛ إذ إنه من أهم الوسائل المعبرة عن الهوية التي هي في أبسط مفاهيمها الامتياز عن الأغيار، ومن ثمّ لا بُدَّ من مراعاة سمتي المغايرة في الهوية والمخالفة في الخطاب عند تحليل خطاب ما.

ونظرا إلى تعدد الهويات عند الإنسان (ككونه ذكرا أبا ابنا زوجا مدرسا واعظا أديبا باحثا صديقا إنسانا مسلما عربيا خليجيا سعوديا نجديا إلخ) فإن كل خطاب تطغى فيه هُوّية على أخرى، ويتوقف إبراز هوية على أخرى على المحيط الخارجي الذي قيل فيه الخطاب أو مناسبته، والباعث على الخطاب أو المثير له، والغرض منه. ومثلما يرتبط الخطاب بمرجعياته فكذا

(١) يقول روبير مارتان ، في سبيل منطق للمعنى ، ترجمة الطيب البكوش ، وصالح الماجري (بيروت : المنظمة العربية للترجمة ، ٢٠٠٦) ، ص ٣٣٨ .

كل هُوِّية ترتبط بمرجعيّة معينة، فالذكورة -مثلا- ترتبط بالجنس والأبوة بالقرابة والتدريس بالمهنة والوعظ بالرسالة أو الوظيفة الاجتماعية والأدب بالهواية والإسلام بالدين والعروبة بالقومية والسعودية بالوطنية والنجدية بالجهوية أو القبلية.

٣، ٨- المرجعيّة المنطقيّة:

يُلجأ إلى المرجعية المنطقيّة في تحليل الخطاب لضمان الاتساق المنطقي للنص وسلامة المقدمات والنتائج التي يحتويها، وصلاحية الدليل والاستدلال للبرهنة، ولا يتم الاستنباط المنطقي عادة إلا بتفكيك البنية المنطقية للخطاب لمعرفة الكيفية التي نظم بها المخاطِب حججه الخطابية، وإنما يكون ذلك بالنظر في طرائقه في الاستقراء والقياس والتعليل والافتراض والتضمن.

وإذا كنا نوقن أن غاية المتكلم قد تكون إقناعنا بفكرة معينة فسيصبح من المهم -إذن- أن نعرف كيف نظم المتكّلم حجته، ولعلّ الاستقراء والقياس من أهم الطرائق المتبعة لتحقيق هذه الغاية، ويعرف الاستقراء بأنه تتّبع الجزئيات واختبارها للوصول إلى حكم كلي، ويشترط في المستقرأ لكي يكون مندرجا في الحكم «المناسبة»؛ أي الاشتراك في العلة أو الصفة المشتركة. ويشمل القياس نوعين: قياس التمثيل (وهو الذي شاعت تسميته في كتب الأصول والنحو بالقياس) وقياس الشمول وهو

البرهان الأرسطي، أما الأول فهو «الحكم على شيء بما حكم به على غيره بناء على جامع مشترك بينهما»[1].

وأما قياس الشمول فهو طريقة في التفكير ينتقل فيها من مقدمة أو أكثر إلى نتيجة، أما الانتقال من مقدمة واحدة فمثاله: كل قِطٍّ حيوان، فهي مقدمة يترتب عليها منطقيّا لا قِطَّ ليس بحيوان، وأما ما تعددت مقدماته فمثاله «كل إنسان حيوان»، «سمير إنسان»، والنتيجة هي «سمير حيوان».

ومن شروط صحة قياس الشمول صحة المقدمات، ووجود حد أوسط مشترك بين المقدمتين (وهو إنسان في المثال السابق)، وصحة الانتقال من المقدمات إلى النتائج، ولا يشترط ذكر كل عناصر القياس، بل قد يُكتفى بذكر إحدى المقدمتين مع النتيجة مع استتار المقدمة الأخرى، وهو كثير في الكلام، وقد يكتفى بذكر المقدمتين وتترك النتيجة لاستنتاج المخاطب.

وهناك نوع ثالث لا يذكر عادة في المنطق الصوري ولكنه مهم في عملية التخاطب، وهو قياس الأولى أو ما يسمى في علم أصول الفقه بمفهوم الموافقة، ومن أمثلته «من يحصل على تقدير جيد جدا ينل جائزة» الذي يفهم منه أن من يحصل على تقدير ممتاز ينال جائزة من باب أولى.

---

(١) تقي الدين بن تيميّة، مجموع فتاوى، (الرياض: مجمع الملك فهد، ١٩٩٥)، ٩ : ١٩٨.

ومن طرائق النظم المنطقي في بناء الخطاب التعليل وهو ربط النتائج بأسبابها، ومن مثالبه الدور(بأن تكون العلة هي المعلول) مثل «إنما تحصل السعادة بالثروة؛ لأن المال يكسب الإنسان السعادة»، وعدم المناسبة مثل «نجح خالد لمشاركته في الامتحان»، ومنه عدم الكفاية، كأن تكون النتيجة مرتبة بجملة من الأسباب، ثم تنسب النتيجة لأحد تلك الأسباب، كما في «قبل الله صلاته؛ لأنه استقبل القبلة». ومنه أيضا التعميم، وهو أن يكون التعليل أعم من الواقع الفعلي، كما في «يعود رسوب الطلاب إلى عدم كفاية المدرس».

ومن الطرق المتبعة في الاستدلال الخطابي الافتراض والتضمن، فالأول كأن نستنتج من «خرج الأستاذ من الفصل»، أنه سبق له أن دخل فيه، والثاني كأن نستنتج من «العصفور في القفص»، وجود حيوان فيه.

ولا يقتصر التأثير المنطقي في الخطاب على المحاجّة والبرهنة، بل يشمل أيضا افتراض قرائن عقلية يفترضها المتخاطب بعد إعمال اللفظ والتفكير في معانيه المحتملة، وتقليبها إلى أن يصل إلى المعنى الذي يظنه مقصوداً، وعادة ما تؤول تلك القرينة العقلية إلى ألفاظ مقدرة فتصبح قرينة لفظية اقتضاها فهم المخاطب لكلام المتكلم؛ وهذا ما يفسر جزئيا اختلاف الفهم، فالقولة (ب) في المثال التالي -مثلا- قد تفسر على أن المقصود منها أن المتكلم لا يريد قهوة، لأنه يخشى أن

تبقيه ساهرا، وقد يفهم منها أن المتكلم يريد قهوة، لكي تساعده على السهر:

* أ- هل تريد قهوة؟
* ب- القهوة تسهّرني.

* ويرجع الاختلاف في التأويلين إلى أن الأوّل (وهو أن المتكلم لا يريد قهوة) وُضع في سياق الشخص الحريص على عدم السهر، الذي يرفض أن يتناول ما يسبب السهر؛ ولذا فإن كلامه (ب) فهم منه أنه يرفض العرض. فإذا ما حولنا تلك القرينة العقلية إلى لفظية، فسيصبح الكلام كالآتي:

أنا شخص حريص على عدم السهر، وأرفض أن أتناول ما يسبب لي السهر؛ ولذا لا أريد القهوة، لأنها تسهرني.

ولعلّ من إيجابيات افتراض قرائن عقلية -علاوة على تأثيرها في استنباط المعنى وتكثير الفائدة- المحافظة على الاتساق المنطقي للنص الذي هو سمة مهمة من سماته؛ إذ بدونه يصبح عسيرا على الفهم، وقد يفقد قيمته الخطابية إذا وصل الأمر إلى حد التناقض الذي يؤدي بالخطاب إلى أن يلغي نفسه، كما في القاعدة التي تقول: «لكل قاعدة شواذ»؛ لأنها لو طبقت على مضمونها، لألغت نفسها؛ إذ سيؤول الأمر إلى أن ثمة قواعد ليس لها شواذ، وهو مناقض لمعنى القاعدة المذكورة.

ويمكننا أن نلحظ أيضا كيف يمكن بتغيير يسير في الخطاب

أن نؤثر تأثيرا سلبيا على اتساقه المنطقي، ففي الشعار الذي يقول: «المهم أن نصل إلى الهدف، ولكن الأهم أن نكون في اتجاهه»، لو قلنا بدلاً من ذلك «المهم أن يكون لنا هدف، ولكن الأهم أن نكون في اتجاهه»، لأدى ذلك إلى جعل «مستلزم الوجود» أهم من الوجود نفسه؛ أي يصبح الاتجاه نحو الهدف أهم من وجود الهدف، وهو أمر غير مقبول منطقيًا؛ لأن وجود الهدف شرط ضروري للاتجاه إليه، وإلا كيف يتحقق الاتجاه إلى شيء غير موجود ابتداءً.

وهكذا يتبين لنا أهمية المرجعية المنطقية في إضفاء سمة النصية على أي جزء من الكلام أريد له أن يؤدي مهمة التخاطب، فكيف يمكن للحداثيين أن يتبجحوا بضرورة هدم الأسس التي قام عليها المنطق وغيره من المرجعيات التي رأوا فيها قيدا يحول دون التوسّع فيما يسمونه التأويل اللامتناهي؟

لقد استهدفت أفكار مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة الإطاحة بمنهج السببية الذي يقوم عليه الفكر الأرسطي، والفلسفة الإغريقية في شكلها العام، كما أنّها رمت إلى تقويض أسس الحضارة الإنسانيّة الغربيّة، وفلسفتها العقليّة التي تقوم عليها، بيد أنّ الغاية السامية التي يطمح إليها الحداثيون ومنظرو ما بعد الحداثة إنما هو التشكيك في الأديان السماويّة ومبادئها. يُفعل كل ذلك باسم محاربة الإيديولوجيا ويُتوسّل بمسالك التأويل اللامتناهي، وبالتقليل من أهمية

المنطق الإغريقي الذي يتأسس على ثلاثة مبادئ[1]:

١- مبدأ الهوية الذي يفسر بأن الشيء يساوي نفسه (أ=أ)،

٢- مبدأ الثالث المرفوع الذي بمقتضاه إما أن تكون القضية صحيحة أو غير صحيحة (ولا يمكن أن تكون الاثنين معا) .

٣- مبدأ عدم التناقض القائل باستحالة أن يكون الشيء موجودا ومعدوما في الوقت نفسه (أ ولا أ)، ويعد هذا المبدأ بالذات من أهم المبادئ المنطقية التي تجلب لنا اليقين؛ لأن به يمكن إثبات العديد من القضايا على وجه لا يخالطه شك؛ فعندما نثبت -مثلا- أنّ فلانا حيّ فسنتيقن -وفقا لمبدأ عدم التناقض- أنّه ليس بميت، ونظرا إلى هذه السمة المهمة التي يكتسيها هذا المبدأ فيمكن التعويل عليه في اكتشاف قطعيّة الدلالة؛ وذلك بمحاولة إلغاء المدلول الذي تدل عليه العبارة، فإن قبلت العبارة إلغاء مضمونها دلّ ذلك على ظنيّة دلالتها، أما إذا لم تقبل الإلغاء فهذا دليل على قطعيتها، يقول كانط تعليقا على مبدأ التناقض «لا يمكن لأي معرفة أن تعارضه من دون أن تهدم نفسها

(١) ينظر إمبرتو إيكو ، التأويل بين السيميائيات والتفكيكيّة ، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد (الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٠) ص ٢٣ .

بنفسها»[1]. وقد ذهب الحداثيون في ذلك مذهبا مختلفا فأقروا بإمكان وقوع التناقض، وجعلوا من المجاز وسيلتهم لتسويغ ذلك يقول إمبرتو إيكو: «وإذا كانت كل الكتب تقول الحقيقة حتى لو أدى ذلك إلى تناقضها، فإن ذلك ممكن لأن كل كلمة هي في الأصل إيحاء أو مجاز. إنها تقول شيئا غير ما يبدو في الظاهر»[2].

٣، ٩- مرجعية السلطة: (سلطة الخطاب والمتخاطبين)

يعبر الخطاب في كثير من الأحايين عن مواقف تفاعلية قد تتخللها رغبات في الإصلاح أو الإقصاء أو الرفض أو المنع أو الهيمنة أو الاستغلال أو الاستعباد أو الاستعمار أو الإخضاع أو النقد أو التملق، وكل موقف من هذه المواقف يكشف عن مظهر من مظاهر ممارسة السلطة الخطابية.

ولا يمكن كشف البعد السلطوي في الخطاب دون معرفة المخاطِب والمخاطَب والإلمام بالمحيط الذي استعمل فيه الخطاب، وقد يستمد المخاطِب سلطته من المؤسّسة التي ينتمي إليها كالقاضي من المحكمة، والشرطي من دائرة الأمن، والحرس البلدي من البلديّة، والمدرّس من المدرسة، والرئيس من الشرعيّة

(١) نقد العقل المحض ١٢٣.

(٢) إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكيّة، ص ٣٠.

الدستوريّة (أو ما يعادلها في دول العالم الثالث)، والزوج من الشرع أو العرف أو القانون، وفي أغلب الأحوال يكون لسلطة المكان والزمان والهيئة والآليّة والصيغة أهميّة خاصة في التأهّل لهذا النوع من السلطة فحكم القاضي -مثلا- يحتاج إلى مكان وهو المحكمة، وقرارات الرئيس إلى زمان (وهو مدته الرئاسيّة)، وآليّة (وهي الطريقة الدستوريّة التي صدرت بها قراراته)، وطلاق الزوج إلى زمان (وهو وقت طهر الزوجة كما هو الشرط عند بعض الفقهاء)، وإلى المكان (وهو المحكمة كما هو الشرط عند بعض الفقهاء) والصيغة (كقوله أنت طالق)، وهناك من مؤهلات سلطة المخاطِب ما لا يكاد يغيب عن شروط الأهليّة كالعقل والبلوغ ونحوهما.

ولا يخفى أنّ بعض السلطات المؤسّسيّة تأخذ شكلا هرميّا يتسلّط فيه الأعلى على الأدنى كما في النظام العسكري وبعض الإدارات، وفي مثل هذه الأحوال قد ينسخ كلام الرئيس كلام المرؤوس، وتبلغ السلطة ذروتها في رأس النظام.

ومثلما يؤثر المخاطِب في الخطاب قد يفرض المخاطَب نفسه على الخطاب، كأن يصاغ الكلام مؤكدا للمنكر، ومطنبا للغبي وموجزا للبيب، ومتذللا للوالدين، ورقيقا للعشيق، ومتأدبا مع الغريب ومع الأعلى رتبة، ومتلطفا مع المنصوح، ومورَّيا عند حضور طرف ثالث. وبعبارة أخرى فإن تحكم المتخاطبين في الخطاب قد تتأثر كمّا وكيفا ورتبة، فمن أمثلة التأثر الكمي

الإيجاز والإطناب، ومن أمثلة التأثر الكيفي الخطاب الرسمي وغير الرسمي، ومن أمثلة التأثر في الرتبة تقديم عنصر ما لأهميته للمخاطب.

وهكذا فإن الخطاب يستمدّ سلطاته من مرجعيّاته المختلفة، وفي الظروف العاديّة تقوى تلك السلطة عادة بقدر وجود القوّة الإيجابيّة في المرجعيّة، ففي مرجعيّة المحيط -مثلا- نجد أنّ الخطاب الصادق (المطابق للواقع إذا ما ظُنّ أو اعتُقد صدقه) أقوى من الخطاب الكاذب، وفي المرجعيّة العقليّة يكون الخطاب السليم المقنع أقوى من الخطاب المغالط، وفي المرجعيّة السياقية يكون الغرض المسوق له الكلام أقوى من الخطاب العرضي، وهو ما يفسّر ترجيح الأحناف لما يسمّونه النصّ على الظاهر.

وفي المرجعيّة البيانيّة يوصف الخطاب الأبلغ بالأكثر تأثيرا حتى إنّه يسمى «السحر الحلال»؛ لماله من تأثير على القلوب والألباب، وهو ما نعنيه بالسلطة البيانيّة، ويبدو هذا واضحا في الخطاب التصويري الذي تتجاوز آثاره النفسانية كل التصوّرات، وحسبنا أن نمثّل بقوله تعالى: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد﴾ (الحج: ١-٢)، الذي يبدو أقوى وأبلغ من قولنا يوم القيامة يوم مفزع مخيف. وهو ما يظهر لنا أنّ ما يعرف بالبلاغة ينبغي أن ينظر إليها في نطاق أوسع من كونها قدرات بيانية تخفي وراءها

أسرارا جماليّة؛ إذ تندرج في الواقع في إطار السلطة الخطابيّة التي ليس البيان إلا مظهرا من مظاهرها، أما مظاهرها الأخرى فتبدو في الإقناع وقوّة الحجّة والصدق الواقعي والسلامة المنطقيّة وصحّة المعلومة وحسن التوقّع.

ولا شكَّ في أنّه في الظروف الاستثنائيّة تتحوّل السمات المرجعيّة السلبيّة إلى سلطات نافذة تستهدف المتلقّين السذّج والبسطاء، وكثيرا ما يقوم السفسطائيّون والغوغائيّون والسياسيّون (وربما الحداثيّون أيضا) باستغلال إمكاناتهم اللغويّة في التلاعب بعقول المخاطبين الذين يفتقدون إلى الحدّ الأدنى من التفكير الناقد، ولا يتورّعون في تمرير أفكارهم عن التوسّل بالمغالطات المنطقيّة والاستمالات العاطفيّة وحتى الخدع والأكاذيب لتحقيق غاياتهم.

وعلى الرغم مما للمرجعيّات السابقة من نفوذ على المخاطِب فإن سلطاته قد تمنحه فرصة التفوق النسبي عليها بشيء من المناورة المقنّنة التي تسمح له بترجيح بعض تلك المرجعيّات على بعض، فيتمكّن -مثلا- من انتهاك المواضعات اللغويّة والعدول عنها استنادا إلى القرائن العقليّة.

وتنقسم السلطة إلى سلطة فوقية (وهي سلطة الأعلى على الأدنى)، وسلطة تحتية (وهي سلطة الأدنى على الأعلى)، وكلاهما له تأثير في الخطاب (قد يلين المسؤول في خطابه بضغط من مرؤوسيه).

والعلاقة بين السلطة والخطاب علاقة تأثير متبادلة؛ إذ كل منهما ينتج الآخر ويقيده، ومثلما يتأثر الخطاب بالسلطة فإنه يؤثر فيها، فالخطاب لا يكتفي -وفقا لفوكو- بنقل السلطة وإنتاجها «بل يقوضها، ويفضحها، ويجعلها هشة، وقد يكون سببا في إحباطها»[1] .

ولعل أقوى الجوانب الذي تظهر فيها سلطة الخطاب هو الجانب المضموني، ولاسيما الإيديولوجي، وقد بالغ بعض المهتمين بتحليل الخطاب في هذا الأمر حتى صاغ عبارة «المعنى في خدمة السلطة»[2] .

٣، ١٠-مرجعيّات أخرى:

لا تقتصر مرجعيات الخطاب على ما ذكر، بل هناك مرجعيات أخرى، منها -مثلا- المرجعيّة العلميّة التي بمقتضاها يمكن التحقّق من صحّة الحقائق والمعلومات، والإحصاءات، وتوثيقها، وتحكيم البحوث العلميّة، والترقيّات ونحوها، ومنها

---

(1) Foucault, Michel, Method , in Cultural Theory and Popular Culture: A Reader, 4th edn, edited by John Storey, (Harlow: Pearson Education, 2009), p.318.

(2) Thompson, J, Studies in the Theory of Ideology (Cambridge: Polity Press, 1984).

المرجعيّة القانونيّة التي بها يحكم على خطاب ما بأنه يحتوي (أو لا يحتوي) على تحريض على الكراهيّة، أو على قذف، أو شتم، أو إهانة، أو نحو ذلك. ومنها المرجعيّة الأخلاقيّة التي يستند إليها فيما هو مقبول أو غير مقبول، وما يندرج في إطار العيب أو الممنوع اجتماعيا أو المسموح به من العناصر المكونة للخطاب.

تعارض مرجعيات الخطاب والترجيح بينها

تتسم مرجعيات الخطاب بتفاوت واختلاف بينها في المناسبة والأهمية، وتعتريها أحوال مختلفة تبعا لنوع الخطاب، ووظيفته السائدة، فالخطاب الأدبي تطغى عليه الوظيفة الجمالية، ومن ثم فمرجعيّته البيانية والجماليّة هي الأهم، وكذلك الشرعي وظيفته وعظيّة وتشريعيّه تراعى فيه الضرورات والحاجيات والمصالح، وتعبّديّة قد تختفي فيه العلل العقليّة، وتضمحلّ -بناء على ذلك- المرجعيّة المنطقيّة لتحل محلها المرجعيّة العقديّة والقانونية.

وأما الخطاب الاتصالي (أو الوصلي) فتتزحزح فيه المرجعيّة الوضعيّة إلى المرجعيّة التواصليّة، حتى تبدو فيه الكلمات بدون معنى (كيف حالك، طيّب، نهارك سعيد).

وعندما نقرأ أو نسمع كلاما غير مفهوم قد نحكم على صاحبه بالجنون، وهنا يتم الانتقال بسرعة من المرجعية

الوضعية التي تزودنا بمعطيات سالبة عن معنى الكلمات المستعملة إلى المرجعيّة المنطقية والمعرفية التي أوصلتنا إلى الحكم على المتكلم بالجنون.

من مسالك الخطاب
إلى المقصد والغرض والغاية

١- مقدمة

يرمي هذا الفصل إلى رسم الخطوط العريضة لمقاربة تخاطبية تربط غايات التخاطب بمسالكه الشائعة في الاستعمال، ويشدد على السمة الغائية في الخطاب التي تقتضي النزوع نحو ضرب من التهميش للمكانة التي اعترشها «المعنى» عبر العصور في مقابل الإعلاء من شأن مفهوم آخر مرتبط به، ولكنه ذو طبيعة سياقية تجعله أجدى منه تخاطبيا، وهو مفهوم «المراد»، ونظرا إلى السمة التركيبية الفضفاضة التي يتسم بها هذا المفهوم -فضلا عن افتقاره إلى الصبغة الاصطلاحية- فقد آثرنا تحليله إلى ثلاثة مفاهيم متمايزة نسبيّا إلى الحد الذي يسمح بالتفريق بينها مفهوميا ووظيفيا، ألا وهي المقصد والغرض والغاية، وسنشرح المقصود بكل من هذه المصطلحات فيما سيأتي، غير أننا سنبدأ بالحديث عن مصطلح «المسالك» كما هو مستعمل في هذا الكتاب.

٢- المسالك

المقصود بالمسالك في هذا الكتاب يشبه إلى حد كبير ما

يقصده بعض الباحثين في مجالات التخاطب وتحليل الخطاب بالإستراتيجيات، غير أننا آثرنا استخدام مصطلح المسالك لعدد من الأسباب، من بينها أن مصطلح «إستراتيجية» يتضمن معنى التخطيط الدقيق بعيد المدى وما يتطلبه ذلك من طول الزمن والتأني، وهو وإن وجد في بعض الخطابات، ولاسيما النصوص المكتوبة فإنه يكاد يغيب عن معظمها، وقد ارتبط مصطلح «الإستراتيجية» أساسا بالمجال العسكري، ثم نقل إلى مجال إدارة الأعمال business administration، وفي كلا المجالين تعد الإستراتيجية نقطة وصل بين السياسات المقترحة policies والتكتيكات tactics، التي هي آليات عملية لتنفيذ الإستراتيجيات المتسمة بالعموم، وعادة ما تحتاج الإستراتيجيات والتكتيكات إلى وسائل مادية لتحقيق الغايات المنشودة والتمكين من إتمام المهمة.

وممن اشتهروا باستخدامهم الإستراتيجية في الخطاب جون ج قمبرز John J Gumperz في كتابه المعروف إستراتيجيات الخطاب. وقد كان هدفه من هذا الكتاب وضع مقاربات حملية interpretive لعمليات المحادثة التي يلتقي فيها المتحدثان وجها لوجه في إطار اللسانيات الاجتماعية، وقد كانت إستراتيجياته إستراتيجيات تلقي الخطاب وليس استعماله من لدن المتكلم أو الكاتب، كما هو الحال في هذا الكتاب. ومما توصل إليه أن المحادثة غالبا ما تحتوي على أدلة داخلية تبين إن كانت قد

نجحت في بلوغ غاياتها التخاطبية أم لا[١]. وأن النظرية اللسانية الاجتماعية التي سعى إلى صوغها ينبغي أن تفسر كيف أن التفاعل بين المتخاطبين يستلزم بعض المشاركة[٢].

ومن بين الذين درسوا إستراتيجيات الخطاب تيون أدريانوس فان ديجك Teun Adrianus van Dijk وولتر كينتش Walter Kintsch في كتابهما إستراتيجيات فهم الخطاب، وقد قارنا بين إستراتيجيات اللعب وإستراتيجيات فهم الخطاب فوجدنا فرقا بينهما يقلل من أهمية القياس بينهما، ولكنهما أقرا بالتشابه بينهما في حاجة مستعمل اللغة إلى القيام بعدد من الخطوات لأداء مهمة معقدة مثلما هو الأمر في أداء اللعبة، وهذه الخطوات لا تحكمها قواعد ولكنها تختلف باختلاف التحليل. وقد صرحا بأن الإستراتيجيات غير محدودة، بل «هي مجموعة مفتوحة»، وهي تكتسب اكتسابا، وتختلف المراحل التي تكتسب فيها باختلاف طبيعتها[٣].

وعلى الرغم من أن كتابهما يركز على إستراتيجيات الفهم،

---

(1) John J. Gumperz, Discourse Strategies (Cambridge: Cambridge University Press, 1982), p.5.

(2) Gumperz, Discourse Strategies, p.29.

(3) Teun A. van Dijk and Walter Kintsch. Strategies of Discourse Comprehension (New York: Academic Press, 1983), p.11.

فقد ناقشا في أحد الفصول إستراتيجيات إنتاج النص[١]. وإن كانا يقران بأن المعرفة المتوفرة عن إستراتيجيات إنتاج النص حتى تاريخ تأليف الكتاب قليلة جدا. وفيما يتعلق بنوع الإستراتيجيات فقد اتسم تصنيفهما بربطها ببعض فروع اللسانيات، فتحدثا عن إستراتيجيات دلالية وأخرى براغماتية وأخرى بلاغية وأخرى أسلوبية فضلا عن إستراتيجيات أخرى كإستراتيجيات المحادثة conversational strategies وإستراتيجات الخطاب discourse strategies والإستراتيجيات التفاعلية interactional strategies.

وفي اللغة العربية أنجز عبد الهادي الشهري رسالة ماجستير تناولت إستراتيجيات الخطاب[٢]، ذكر فيها وظيفتين للخطاب: هما الوظيفة التعامليّة والوظيفة التفاعليّة، وتحدّث عن الإستراتيجية التضامنية والإستراتيجية التوجيهيّة المرتبطتين بالعلاقة بين المتخاطبين، والإستراتيجية التلميحيّة المرتبطة بما يسميه «دلالة الشكل اللغوي»، وإسترتيجيّة الإقناع المرتبطة بالهدف من الخطاب، وقد ضمّن الباحث رسالته مادة جيّدة

---

(1) Teun A. van Dijk and Walter Kintsch. Strategies of Discourse Comprehension, p.16.

(٢) نشرت الرسالة في هذا الكتاب : عبد الهادي بن ظافر الشهري ، إستراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية (بيروت : دار الكتاب الجديد المتحدة ، ٢٠٠٤) .

وغنيّة في الموضوع، وإن اختلفنا معه في طريقة التصنيف المنطقي للإستراتيجيّات.

أما «المسالك» فهي كلمة -وإن لم تستعمل بالمعنى الاصطلاحي المراد في هذا العمل- فقد شاع استخدامها في كتب التراث، وفي بعض الكتابات المعاصرة في معناها العام، واستعملها علماء أصول الفقه في معنى اصطلاحي، ارتبط بمفهوم العلة حيث أشاروا إلى الطرق التي تستنبط بها العلل، وذلك كالمناسبة، والشبه، والطرد، والدوران، والسبر والتقسيم، بـ «مسالك العلة»، وقد سميت بذلك «لأَنَّ الْمَسَالِكَ تُوَصِّلُ إلَى الْمَقْصُود»[1]، وهَذه القَضَايَا أعني المناسبة ونحوها «يُتَوَصَّلُ بِهَا إلَى الاِطِّلَاعِ عَلَى عِلِّيَّةِ الشَّيْءِ»[2].

أما في معاجم اللغة، فيعرّف المسلك وضعا بأنه الطريق، وهو في الأصل اسم مكان مشتق من «سلك الطريق إذا ذهب فيه»[3]، ومصدر الفعل «سلوك»، ومن مصادره أيضا السَّلْكُ بفتح السّين، وهو إدخال الشيء في الشيء، جاء في لسان

(١) حسن بن محمد بين محمود العطار، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، (بيروت: دار الكتب العلمية، د ت)، ١٣٦/٥.

(٢) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، ١٣٦/٥.

(٣) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥) (سلك) ص ٣٢٦.

العرب: «يقال سَلَكْتُ الخَيْطَ في المِخْيَطِ أَي أَدخلته فيه»،[١] وهو يوحي بالدقة، وجاء في مقاييس اللغة أن «السين واللام والكاف أصلٌ يدلُّ على نفوذ شيءٍ في شيء»[٢]، وعلى ذلك يكون المسلك هو المنفذ، وذكر الخليل في كتاب العين أن «السُّلْكَى : الأَمْر المُسْتَقيم»،[٣] وجاء في أساس البلاغة للزمخشري: «ومن المجاز: ذهب في مسلك خفيّ، وخذ في مسالك الحق، وهذا كلام دقيق السلك خفي المسلك». ولعله من حسن الاستطراد أن نذكر أن السيوطي يسمي الطريقة التي يتعلم بها الطفل اللغة مسلكا[٤] .

ويستنتج من كل ما سبق أن المسلك يدل على الطريق والطريقة والمذهب، ويوحي بالمعاني الآتية: الدقة والاستقامة

---

(١) محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب (بيروت : دار صادر ، د ت) (سلك) ٤٤٢/١٠ .

(٢) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا ، مقاييس اللغة (دمشق : اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٢) (سلك) ٧٤/٣ .

(٣) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تحقيق : د .مهدي المخزومي ود .إبراهيم السامرائي (بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ٢٠٠٢) (سلك) ٣١١/٥ .

(٤) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق : فؤاد علي منصور (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨) ، ٢٢/١ .

والإتقـان والإدخـال والمنفـذ والوسـيلة والاخـتـيـار والسلوك والتصرّف، وجلّها معان مقصودة في ما أردناه من هذا المصطلح، فهو شبيه بالمقاربة approach التي تعني الاقتراب من موضوع ما من اتجاه معيّن، لكونه المدخل إلى موضوع التخاطب، وهو المنفذ إلى عـقل المخـاطب وفـؤاده، وهو الطريق إلى مـقـصـد المتكلم وغرضه من كلامه، وهو الوسيلة لتحقيق غاية التخاطب، وإذا كان استعمال الألفاظ للدلالة على المعاني فعلا من الأفعال - كما يراه أنصار نظريّة أفعال الكلام- فـمن المناسب أن يكون المسلك سلوكا باعتباره مصدرا ميميا للفعل سلك، والسلوك فعل كما هو معلوم، كما أنه الطريقة المختارة لتحقيق مقاصد التخاطب وأغراضه وغاياته، وهو اختيار يحتاج إلى تدبير ودقة وإتقان إذا ما راعينا أنه مشتق من « سَلَكْتُ الخَيْطَ في المِخْيَطِ أَي أَدخلته فيه»، ومن ثمّ فهو في حاجة إلى «إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه» بحسب عبارة حازم القرطاجنّي عند حديثه عن الغرض في الشعر والخطابة[1] .

يمكن أن نعرف مقصودنا الاصطلاحي بالمسلك التخاطبي -إذن- بأنه طريقة في التعبير ترتبط بخطة ذهنية بسيطة أو

---

(١) القرطاجني ، حازم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، (تونس : دار الكتب الشرقية ، د .ت) ص ٣٦١ .

مركبة ترمي إلى استثمار بعض المعطيات الوضعية أو السياقية أو القدرات المنطقية أو الأصول التخاطبية أو الوسائل الخطابية المتاحة أو أكثر من نوع منها لتحقيق غاية أو أكثر من غايات التخاطب.

وفيما يبدو أنه تقريب لفكرة الإستراتيجية من فكرة المسلك كما شرحت هنا، يذكر فان ديجك van Dijk وولتر كينتش Walter Kintsch أن الإستراتيجية في علم النفس تحيل على «سلوك إدراكي من نوع ما»[١]، ويذكران أيضا أن الإستراتيجيات تنتمي إلى طرق السلوك الفعال في مقام معين لتحقيق هدف ما. وبينما تحدد القواعد الخطوات الممكنة تحدد الإستراتيجيات أي خطوة من الخطوات الممكنة يمكن اختيارها لتحقيق أهداف المتكلم على أفضل وجه[٢].

وتتسم المسالك في الخطاب المكتوب بطبيعتها المركّبة، وينعكس هذا التركيب على بنية الخطاب ووظيفته، كما أنّها تصطبغ بطابع الثبات النسبي؛ إذ ليس ثمة ما يعكر انسيابياتها واطراداتها؛ ولاسيما إذا راعى الكاتب الأسئلة والاعتراضات

---

(1) Teun A. van Dijk and Walter Kintsch. Strategies of Discourse Comprehension, p.68.

(2) Teun A. van Dijk and Walter Kintsch. Strategies of Discourse Comprehension, p.67.

والاستدراكات المتوقع أن يثيرها القارئ، أما في الخطاب الشفوي فليس هناك مسلك ثابت دائما، بل إن الغالب هو أن المقام التخاطبي يفرض تغييرات عارضة قد تحمل المتكلم إلى تحويل خطواته التخاطبية إلى ردود أفعال آنية على مشاركات المخاطَب، بيد أن التخاطب الناجح يفرض أن تتسم هذه الردود الآنية بالتماسك البنيوي والوظيفي ووحدة الهدف، وبذلك يكون المسلك في خطاب المشافهة ذا سمة تراكمية زمانية متوالية محكومة بعوامل الزمن والمكان والمحيط واستجابات المخاطبَ.

وعندما يترسّخ المسلك في طرائق التعبير التي ينزع إليها المتكلم، ويصبح عادته المطردة يتحوّل إلى «منزع»، بحسب تعريف حازم القرطاجنّي للمصطلح مع شيء من التوسيع حتى لا يقتصر على الشعراء وحدهم، وقد عرّفه حازم بقوله: «المنازع هي الهيئات الحاصلة عن كيفيّات مآخذ الشعراء في أغراضهم، وأنحاء اعتماداتهم فيها، وما يميلون بالكلام نحوه أبدا، ويذهبون به إليه...»(١).

وربما حُق لنا أن ندعي أن هذه النظرة الغائية للخطاب ليست بدعا في الدراسات اللغوية العربية، بل هي امتداد للمدرسة البلاغية والأصولية والتفسيرية التي كثيرا ما تتحدث

---

(١) منهاج البلغاء، ص ١١٧.

عن الأغراض البلاغية، وعن مراعاة مقتضى الحال، ويشيع عندهم قولهم: إن المتكلم ينصب قرينة للدلالة على مراده.

وانسجاما مع هذه المدارس التراثية الثلاث ومع منجزات البحوث اللسانية الحديثة، ولاسيما ما ارتبط منها بالمقاربات البراغماتية وتحليل الخطاب، لا بُدَّ من التشديد على أننا ننظر إلى الخطاب على أنه عملية إرادية قصدية. أما كونه عملية فلتمييزه عن نظرة بعض اللغويين إليه بأنه مجرد نتاج جامد، وأما كونه إراديا فتعبير عن حرية المتكلم في أدائه، وأنه سلوك إيجابي يهيمن عليه المتخاطبون، وأما كونه قصديا فلكونه موجَّها؛ وذلك لارتباطه بالمقاصد والأغراض والغايات.

وإذا كان الأمر كذلك فإن للخطاب تأثيرا اجتماعيا بيّنا؛ وذلك لكونه ليس مجرد قول، بل هو فعل غائي، مرتبط أشد الارتباط بمرجعياته الاجتماعية المتعددة المصادر والأنواع. وهذا يتطلب تجاوز قصر البحث في استعمال اللغة على الجانب القواعدي أو الدلالي للعناصر اللغوية، بل أضحى من المهم النظر إلى عملية التخاطب على أنها عملية بناء مسالك مبنية على المعطيات السياقية؛ لتحقيق غايات المتخاطبين، ولاسيما أن «الهدف من الخطاب يحدّد كل شيء آخر في عملية الخطاب» كما يذكر كينيفي Kinneavy[1].

(1) James L. Kinneavy. A Theory of Discourse. (Englewood Cliffs: Prentice, 1971).

ويمكن أن نستشهد على ذلك بقصة الرجل الذي ضاق ذرعا بسوء طبخ زوجته، فأراد أن ينبهها على تقصيرها ويحثها على تحسين الأداء، فلجأ إلى مسلك الاقتباس؛ لإقناعها بذلك: حيث علّق لوحة كبيرة في جدار المطبخ مكتوبا عليها الأثر المشهور «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» مستنجدا بالسلطة الدينية للنص المقتبس لتحقيق غرضه.

٣- الغايات والأغراض والمقاصد

الغاية لغة هي مدَى الشيء، وهي أقْصياه ومنتهاه[١]، وتعرّف في الفلسفة وعلم الكلام بأنها «ما لأجله وجود الشيء»[٢]، ويذكر ابن سينا «أن الفاعل الأول والمحرك الأول في كل شيء هو الغاية»[٣]، وينقل التهانوي أن «كل مصلحة وحكمة تترتب على فعل الفاعل تسمى غاية من حيث إنها

---

(١) ابن منظور، لسان العرب («الغاية» مادة غيا).

(٢) جميل صليبا، المعجم الفلسفي (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢)، «الغاية».

(٣) الحسين بن علي بن سينا، النجاة في المنطق والإلهيات، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢)، ص ٣٤٥، وينظر جميل صليبا، المعجم الفلسفي، «الغاية».

على طرف الفعل ونهايته، وتسمى فائدة أيضا من حيث ترتبها عليه»[1] .

وكل ما ذكر هنا ينطبق إلى حد كبير على ما نقصده بالغايات الخطابية، ومن أهم هذه الغايات: الإبلاغ والطلب، والتعلّم والتعليم، والإفصاح، والتفسير، والتأثير، والإقناع، والإمتاع، والتواصل، وذلك لأن مستعمل اللغة إما أن يبلغ مخاطبه بمضمون قضية ما على سبيل الإعلام، ويستعمل لذلك أسلوب الإخبار عادة، أو أنه يطلب شيئا على سبيل الأمر أو النهي، أو يستعلم عن شيء على سبيل الاستفهام، أو أنه يفصح عن انطباعاته ومشاعره ورغباته كما في التعجب والتمني والترجي والتحسر والمدح والذم، أو أنه يستفسر عن شيء أو يفسّر شيئا ما كشرح معادلة، أو توضيح ما غمض من المسائل، ويندرج في هذا الكثير من الاستعمالات اللغوية في قاعات الدراسة، وقد تكون الغاية من الخطاب التأثير في مخاطبه بتغيير سلوكه عن طريق الوعظ أو النصيحة، أو إقناعه بفكرة ما، أو إمتاعه بعمل إبداعي، أو ربما مجرد الشروع في التواصل معه أو الحرص على استمرار هذا التواصل.

---

(١) محمد علي التهانوي ، موسوعة كشاف مصطلحات الفنون والعلوم ، تحقيق د رفيق العجم (بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٩٦) «الغاية» ٢ : ١٢٤٦ .

ونظرا إلى الطبيعة الاجتماعية المتأصلة في عمليات التخاطب، فإنه من الممكن تصنيف الغايات الكلّية للتخاطب التي لا تكاد تخلو من سمة اجتماعية بأنها نفسية أو إعلامية، أو دينيّة، أو أيديولوجيّة، أو أخلاقيّة، أو فنيّة. وقد صنّف فاندرفينكن Vanderveken أهداف اللغة إلى أهداف إفصاحية expressive تنجلي بها المواقف، ووصفيّة descriptive تصف العالم الخارجي، وتوجيهيّة deliberative تملي ما ينبغي فعله، وتشريعيّة declaratory تغير العالم الخارجي بإصدار تشريعات(١) .

إن فكرة الغايات الخطابية ترتبط مباشرة بالأسباب التي من أجلها نستعمل اللغة، وبذلك يؤول الحديث عن الغايات إلى بحث في وظائف اللغة، والبواعث التي من أجلها وجدت.

أما الأغراض فمفردها غرض، وقد جاء في الصحاح للجوهري أن الغرض هو «الهدف الذي يرمى فيه، وفهمتُ غَرَضَكَ؛ أي قصدك»، وورد في لسان العرب أن الغرض هو «شدّة النِّزاعِ نحو الشيء والشوْقِ إليه»، وهو «الهدَفُ الذي

---

(1) Daniel Vanderveken. Towards a Formal Pragmatics of Discourse. (in the Proceedings of the International Colloquium Logic and Dialogue held at Grenoble (France) in November 2002), p.2.

يُنْصَبُ فيرمى فيه، والجمع أَغْراضٌ»[1]. وقد عرف حازم القرطاجنّي الأغراض بأنها الهيئات النّفسية التي يُنْحى بالمعاني المُنتسبة إلى تلك الجِهات نحوها، ويُمال بها إلى صوغها»[2].

وفي الفلسفة وعلم الكلام يعرف الغرض - ويسمّى علة غائية- بأنه «ما لأجله إقدام الفاعل على الفعل، وهي ثابتة لكل فاعل فعل بالقصد والاختيار»[3]، وقد عرّفه ابن حزم الظاهري بأنه «الأمر الذي يجري إليه الفاعل ويقصده ويفعله»[4].

ومن الواضح التركيز في هذين التعريفين على العلية والقصديّة في مفهوم الغرض، وإذا كانت الغايات مرتبطة بوجود اللغة نفسها، فإن الأغراض هي علل قصديّة للمخاطبة، وهو ما يجعله مناسبا لما سنسميه «أغراض التخاطب» تمييزا لها من الغايات والمقاصد.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب («الغرض» مادة غرض).

(٢) القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٧٧.

(٣) محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، («مادة الغاية» ٢ : ١٢٤٥).

(٤) ابن حزم، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام (القاهرة : دار الحديث، ١٤٠٤)، ١١٦٧.

ولعل أهم أوجه الافتراق بين الغايات والأغراض؛ أن الغايات تتسم بالعموم والتجريد والكلّيّة، وأما الأغراض فهي متوسطة في ذلك بين الغايات والمقاصد التي تتسم بالجزئية والحسية والآنية. ومن هنا فإن مرادات المتكلم تتدرج من حيث التجريد من الغايات إلى الأغراض إلى المقاصد. وسنستعمل مصطلحات الغاية والغرض والمقصد في معانيها الاصطلاحية ونترك كلمتي «هدف» و«مراد» لاستخدامها في معناهما اللغوي العام.

ومن الأغراض الشائعة في التخاطب الإعلام، والمدح، والذم، والهجاء، والرثاء، والغزل، والفخر، والاعتذار، والعتاب، والوعظ، والتوجيه، والإرشاد، والنصيحة، والتعليم، والتبليغ، والحكاية، والمناظرة، والجدل، والمخاصمة، والردع، والزجر، والتخويف، والإرهاب، والتخوين، والترغيب، والترهيب، والتحذير، والتنفير، والتحقير، والإهانة، والسخريّة، والإرضاء، والتحيّة، والتهنئة، والتعزية والمواساة، والتحسّر، والندم، والإنجاز الاجتماعي أو الاقتصادي (كما في صيغ عقود النكاح، والطلاق، والبيع)، وكل غرض من هذه الأغراض يندرج تحت غاية أو أكثر من الغايات الخطابية الكلية السابقة.

ولكي تتحقق غايات التخاطب وأغراضه يلجأ المتكلم عادة إلى مسالك الخطاب التي تمكنه عند اقترانها بوسائل نظمية وخطابية جزئية من الكشف عن المقاصد الآنية المباشرة

للقولات اللغوية المجسّدة لتلك الأغراض والغايات العامة.

ولعلّ قصة إبراهيم -عليه السلام- مع قومه توضّح لنا بجلاء كيف يمكن استثمار السياق الاجتماعي والثقافي والمقامي لبناء مسلك حجاجي متعدد المقاصد والأغراض والغايات؛ إذ بالتأمل في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣)﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣]، فسنجد أنه يشتمل في الأقل على خمسة مستويات من المقاصد مرتبة من أسفل إلى أعلى، على النحو الآتي:

المقصد الأول: هو إشارة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- إلى أنّه لم يكسر الأصنام، بل الذي كسرها هو كبير الأصنام

المقصد الثاني: تنبيههم على أن الأصنام التي يعبدونها لا تفعل شيئا، ولا تنطق، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها، ومن ثم لا يمكنها أن تنفعهم ولا تضرهم.

المقصد الثالث: التعريض بهم، لكونهم يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر.

المقصد الرابع: إقامة الحجة عليهم، وتبكيتهم.

المقصد الخامس: دعوتهم إلى عبادة الواحد القهّار.

وقد استعمل -عليه السلام- عددا من الوسائل النظمية والحجاجية لتنفيذ مسلكه الخطابي وإبلاغهم مراداته، فاستعمل الخبر المقترن بـ «بل» التي للإبطال لقصد الإنكار، وتنبيه

مخاطبيه عبدة الأصنام على عجز آلهتهم، ثم استعمل الأمر «فاسألوهم» المعلق بشرط النطق «إن كانوا ينطقون»؛ لتذكيرهم بأن من يعجز عن النطق لا يستحق العبادة، واستعمل مسلك التلميح للتعريض بهم وتبكيتهم، ولجأ إلى وسيلة المجاراة في الباطل لغرض إلزامهم بالحجة.

ولعلّ من أهم ما يمكن استنتاجه من الاستشهاد السابق - فضلا عن بيان الترابط بين المسالك التخاطبية وغايات المتكلمين- أن المقاصد قد تتعدد وقد تكون مرتبة ترتيبا تدرجيًا طبقيّا على النحو المذكور. ولعل مثال جون سيرل Searle John المشهور «هل بإمكانك أن تناولني الملح» (Can you pass the salt) (إذا قيلت لمن يجلس بجانب المتكلم على منضدة الطعام) يوضّح لنا إمكان هذا التعدد المقصدي، حيث تدل على الاستفهام وعلى الطلب معا، وكلاهما مقصود .[1]

وقد كشف سيدنا إبراهيم عليه السلام في الآيتين السابقتين عن عدد من المقاصد الكلامية، مثل إنكار كسره للأصنام، وتنبيه قومه على عجز الأصنام، والتعريض بسفاهتهم، وتبكيتهم، ودعوتهم إلى عبادة العليّ القدير،

(1) John R Searle. (1975b, ISA): "Indirect Speech Acts". In Searle (1979), 30-57. First published in Syntax and Semantics 3: Speech Acts, eds. Peter Cole / Jerry Morgan, (NewYork: Academic Press 1975), p.30.

لتحقيق أغراضه التخاطبية وهي الوعظ والتوجيه والإرشاد والنصيحة والتعليم والتبليغ والجدل، ليصل بذلك إلى تحقيق غايتين من غايات التخاطب هما الإقناع والتأثير، وقد تحقق له كل ذلك باستعمال جملة من المسالك كالتلميح والتصريح والاستدلال.

ويفهم من مراجعة ما كتب المفسرون عن هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام كان مجدا في إظهار الحق الذي هو التوحيد، وقد استعمل لتحقيق ذلك -كما يذكر الرازي في مفاتيح الغيب- طريقتين: الطريقة القوليّة في قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ الَّذِي فطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، والطريقة الفعلية وهي «المكيدة» المشار إليها بقوله: ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧][1]، وقد كانت الخطوة الأولى من هذه المكيدة هي تحطيم الأصنام ووضع القادوم في يد كبيرها، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل دخل معهم في محاجّة تبيّن منها -كما ذكر الزمخشري في الكشّاف- أنّ «قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على

---

(١) محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي، تفسير الفخر الرازى (بيروت: دار إحياء التراث العربى، د ت)، ٢٢: ١٥٢ - ١٥٥.

أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم»[1] .

وهكذا نرى أن الزمخشري والرازي كانا يحومان حول فكرة «المسلك»، وقد سماها الرازي «طريقة»، وسماها الزمخشريّ «أسلوبا»، وربطها بصريح العبارة بالقصد والغرض كما مر في الاقتباس السابق.

ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن الاستشهاد بها للدلالة على الفرق بين الغايات والأغراض والمقاصد المثل المشهور الذي يقول: «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»، فمعنى المثل هو أن جوع المرأة الشريفة أفضل من استعمالها ثدييها وسيلة للحصول على أكلها، وقد شحن المثل بعدد من المقاصد الكلامية منها

١- أنّ تحمّل آلام الجوع أهون من أن تتنازل المرأة عن كبريائها، وتقبل بأجرة مقابل إرضاع أطفال الآخرين، وهذا المقصد يقود إلى مقصد كلي أعم، وهو

٢- أن الحرمان من الحاجات الجسديّة أهون من انتهاك قيم الشرف، ثم نستنبط من هذا المعنى الكلي معنى جزئي آخر، وهو

---

(١) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧ هـ) ، ٣ : ١٢٤ - ١٢٥ .

٣- أن جوع المرأة أفضل من بيعها شرفها بالزنا ونحوه لتطعم نفسها.

أما الغرض التخاطبي فهو استهجان ظاهرة امتهان الإرضاع بأجر، وذم المرأة التي تفعل ذلك، وأما الغاية من التخاطب هنا فهي التأثير.

وعلى الرغم من أنّ الخلط بين الأهداف والأغـــراض والمقاصد شائع عند المهتمين بعملية الإدراك كما استنتجت نانسي بليلر Nancy Blyler[(١)]، وعند البراغماتيين وفلاسفة اللغة[(٢)]، فإنه من الممكن التأكد من مصداقية التفريق بين المقصد والغرض والغاية، بأن نتخيل مقاما تخاطبيا ينصح فيه

---

(1) Nancy Roundy Blyler. Purpose and Composition Theory: Issues in the Research. (Journal of Advanced Composition, v9 n1-2 p97-111 1989), p.98. See also Linda Flower and John R. Hayes. "The Cognition of Discovery: Defining a Rhetorical Problem." College Composition and Communication 31 (1980): 21-32.

(٢) من نماذج الاضطراب الممكن ذكرها هنا اضطراب سيرل Searle في مقصوده بالغرض purpose ، فمرة يتحدث عن الغرض من الأمر على أنه محاولة لحمل السامع على فعل الشيء ، وذلك كما جاء في (c, Taxonomy١٩٧٥) في ص ٢ ، وفي ص ١٣ من كتابه المشترك مع فاندرفيكن Vanderveken يتحدثان عن غرض داخلي متضمن في الفعل القولي :

صديق صديقه -بعد أن علم بعدم قيامه لصلاة الفجر- بأن ينام مبكرا ليستيقظ مبكرا، ولنتصور أنه من الممكن أن يسرد لنا الناصح ما حدث له مع المنصوح على النحو الآتي: «لقد نصحته بأن ينام مبكرا ليستيقظ مبكرا، وقد أدرك قصدي، ولكنه لم يستجب».

ومما يمكن استنتاجه من هذا المثال أن الصديق أدرك مقصد الناصح وهو أنه يريد منه أن يؤدي صلاة الفجر في وقتها، وأن الناصح حقق غرضه من كلامه وهو النصح، ولكنه أخفق في تحقيق غاية التخاطب وهي التأثير في المخاطب، وهو ما يعني صحة التمييز بين المقصد والغرض والغاية، كما يعني أيضا أن النجاح الحقيقي لعملية التخاطب إنما يتم بتحقيق الغاية، أما إنجاز الغرض فهو نجاح نسبي فقط.

- John R Searle. "A Taxonomy of Illocutionary Acts". In Searle (1979), 1-29. First published in Language, Mind, and Knowledge. Minnesota Studies in the Philosophy of Science vii, ed. Keith Gunderson, (Minneapolis: University of Minnesota Press 1975, 344-369), p.2.

- John R Searle and Vanderveken, Daniel. Foundations of Illocutionary Logic. (Cambridge: Cambridge University Press) , p.13.

٤- المعنى والمقصد

لعل من الأسئلة المتبادرة إلى الذهن بعد الحديث عن المقاصد الكلامية والأغراض التخاطبية وغايات الخطاب السؤالين الآتيين: أين يقع المعنى من كل ما سبق؟ وما الفرق بين المعنى والمقصد؟

والجواب هو أن المعنى هو مدلول الألفاظ على مستوى التجريد، وهو مدلول افتراضي؛ لأن تصوّره يقتضي عزله عن سياق التخاطب والعودة إلى مرجعيته الوضعية لتحديد مضمونه. وهذا يَؤول إلى القول بأن الفرق الجوهري بين المعاني والمقاصد أن المعاني تفهم من المواضعات اللغوية، في حين أنه لا بُدَّ لاستنباط المقاصد من الوقوف على القرائن اللفظية والمعنوية والاستعانة بالقدرات الاستنتاجية والتأمل في الأصول التخاطبية.

لم يعد المعنى -إذن وفقا للمقاربة التخاطبية- هدفا أساسيا لعملية التخاطب، بل أضحى مرحلة مؤقتة للوصول إلى المقصد، وهو خطوة إجرائية وأداة تواصلية لبلوغ مراد المتكلم، إنه المرحلة الأولى في الانتقال بالمدلول نحو تحقيق غاية أو أكثر من غايات التخاطب، فمنذ أن ينتقل الذهن من اللفظ إلى المعنى اهتداء بالعلاقة الوضعية الاعتباطية التي تربط بينهما تبدأ رحلة البحث نحو مرادات المتكلم التي تشمل الغاية والغرض والمقصد، ولا بُدَّ من التشديد هنا على أن الانتقال من المعنى

إلى أي من هذه المفاهيم الثلاثة هو قضية عقلية سياقية تخاطبية وليس للوضع فيها من تأثير مباشر.

ولا بُدَّ من التذكير أيضا أنه يمكن أن يفهم المعنى دون أن يدرك المقصد، وهو أمر شائع في المخاطبات، وقد ذمّ القرآن كفار قريش بوصفه لهم أنهم «لا يفقهون»، مع أنهم عرب أقحاح يفهمون معاني الكلام، ولكنهم يخفقون في فهم مقاصد الشارع، وهذا عائد إلى أن الفقه -كما عرفه ابن القيم- «أخصّ من الفهم؛ وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة»[1] .

ومن الفروق الجوهرية بين المعاني والمقاصد أن المعاني تنتمي إلى الوضع واللغة، في حين تنتمي المقاصد إلى الاستعمال والكلام، ومن ثمّ يمكن الحديث عن «معاني الجمل» و«مقاصد القولات» على افتراض أن الجمل كيانات وضعية مجردة، والقولات هي التحققات الفعلية للجمل في المقامات التخاطبية، وهكذا فإن المعاني تدرس في علم الدلالة semantics، أما المقاصد فتدرس في علم التخاطب pragmatics.

وقد يتفق المعنى مع المقصد إذا ما استُعمل اللفظ في معناه

---

(١) محمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية ، إعلام الموقعين عن رب العالمين (دار الكتب العلمية ، ١٩٩١) ، ١٦٧/١ .

الحقيقي، وفي هذا الحال فإن الاتفاق يكون في الذات فقط؛ أما في الاعتبار فإنه معنى من حيث كونه نتاجا للوضع اللغوي، ومقصد من حيث كونه نتاجا للاستعمال والقرائن التخاطبية.

وسنوضح في الجدول الآتي رسم المسار الذي تسير عليه القولات اللغوية ابتداء من المسلك الذي اتُّبع في إنشائها مرورا بالمعنى فالقصد والغرض والغاية من خلال بعض الأمثلة.

القولة	المسلك	المعنى	المقصد	الغرض	الغاية
زيد كثير الرماد	الإخبار (نظمي)	زيد كثير الرماد	زيد كريم	المدح	التأثير
﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]	الإخبار (نظمي)	أن المكذبين سيعذبون يوم القيامة	الوعيد	التخويف	التأثير
قول خديجة للرسول - ﷺ: «إنّك لتصل الرحم وتصدق الحديث»	الإخبار (نظمي)	أنه يصل الرحم ويصدق في القول	التذكير	الطمأنة	التأثير
﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ	الاستفهام (نظمي)	السؤال عن حب أكل	الإنكار	التنفير	التأثير

أَخِيهِ مَيْتاً﴾ [الحجرات :١٢]		لحم الأخ الميت			
﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء :٣٢]	النهي (نظمي)	عدم قرب الزنى	التحريم	التوجيه	التأثير
أين تقع مدغشقر؟	الاستفهام (نظمي)	السؤال عن أين تقع مدغشقر؟	الاستفسار	الاستكشاف	التعلم

هذا الشكل يوضح بالمثال المسار من المسلك إلى الغاية

٥- طبقات المعنى

مثلما كان للمقصد مراتب فإنّ للمعنى مستويات أو طبقات متدرّجة: ففي نحو الكناية المشهورة فلان كثير الرماد يمكن التمييز بين المعاني الآتية:

المعنى الأول: أن لفلان رمادًا كثيرًا (علاقته باللفظ اعتباطيّة).

المعنى الثاني: أنّه كثير إشعال النيران (علاقته بالمعنى السابق عقليّة).

المعنى الثالث: أنّه كثير الطبخ (علاقته بالمعنى السابق عقليّة).

المعنى الرابع: أنّه كثير الضيوف (علاقته بالمعنى السابق عقليّة).

وعندما تتضافر القرينة مع المعنى في المقام التخاطبي فالناتج هو المقصد، وهو هنا «أنّه كريم جواد».

وباستثناء المعنى الأول الذي تكون العلاقة فيه بين اللفظ والمعنى علاقة وضعية اعتباطية تعد بقيّة المعاني من قبيل ما يسميه عبد القاهر الجرجاني «معنى المعنى»، وهو معنى ينشأ عن علاقات معنوية استنتاجيّة على منوال ما عرف بقاعدة «المعنى يجذب المعنى»(١). ومثلما هو الحال مع المعنى الذي قد يكون مقصودا حرفيا أحيانا فيتحول إلى مقصد بفعل السياق، فكذلك معنى المعنى قد يكون مقصودا لذاته كما في التأويل الأخير (وهو أنّه كريم جواد) في الكناية السابقة حيث تحوّل إلى مقصد كلامي.

وقد فرق بعض علماء التراث بين المعاني الأُوَل والمعاني الثواني، فمثال المعاني الأول القيام المؤكد في نحو «إنّ زيدا قائم» ومثال المعاني الثواني في هذا المثال «رد الإنكار ودفع الشك». وقد ذكر التهانوي أن المقصود بالمعاني الثواني

---

(١) محب الله بن عبد الشكور، شرح مسلم الثبوت، ط٢ . (قم، إيران: دار الذخائر، ١٣٦٨)، ١٨٦/١؛ عبد العلي الأنصاري، فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، ط٢ . (قم، إيران: دار الذخائر، ١٣٦٨)، ١٨٦/١ .

«الأغراض التي يساق لها الكلام»[1]، فإن صحّ هذا فقد قارب المقصود في هذا الكتاب بالأغراض التخاطبية.

يمكن -إذن- أن نلخص ما سبق في أن عملية التخاطب تبدأ باللفظ وينتقل منه إلى المعنى من خلال العلاقة الوضعية الاعتباطية، ثم يُنتقل من المعنى إلى القصد المرتبط بكل من الغرض والغاية من خلال معطيات تداولية واجتماعية تتجسد من خلال السياق في مفهومه الواسع.

الانتقال من اللفظ إلى المعنى	علاقة وضعية اعتباطية
الانتقال من المعنى إلى القصد والغرض والغاية	معطيات وعلاقات تداولية واجتماعية

هذا الشكل يوضح العلاقة بين اللفظ والمعنى، وبين المعنى، والقصد والغرض والغاية

وأخير لا بُدَّ من الإشارة إلى أن المسلك والغرض والغاية هي مفاهيم نسبية بحيث يمكن أن يتحول ما كان غرضا في مقام تخاطبي ما إلى مسلك لبلوغ غرض غير لغوي مثلا، وذلك كأن يمدح المتكلم شخصا آخر لغرض الحصول على بعض المال، فيصبح المدح مسلكا والحصول على المال غرضا والإثراء غاية،

(١) التهانوي، موسوعة كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، «الغاية» ٢ : ١٦٠٠ .

ومن ثم يتزحزح الغرض عن طبيعته اللغوية ويصبح مأربا خارجيا، مثلما هي الغاية دائما. وهذا التحوّل في طبيعة الغرض يعكس حقيقة مفادها أن الممارسات التخاطبية ليست منقطعة عن سائر الأفعال الاجتماعية التي نقوم بها في حياتنا.

٦- من التلفظ إلى الخطاب

لقد شدّد دو سوسير على ضرورة تجاوز النظر إلى اللغة على أنها مادة صوتية مشيرا إلى أن «أخطاء مصطلحاتنا، وكل طرائقنا في تمييز أمور اللغة المعينة إنما تصدر عن افتراض مقصود مضمونه أن هناك جوهرا في الظاهرة اللغوية»[١]. فما ينتج عن الجوهر في حقيقة الأمر لا يعدو التمكن من إصدار الصوت، وهذا التصويت ليس خصيصة بشرية، ولا هو خصيصة حيوانية، بل يمكن حدوثه من الجمادات، وذلك كهزيز الريح وصوت الرعد واصطكاك الجمادات، أما ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوان فهو التلفظ الذي هو إصدار صوت حيواني كالزئير والنهيق والنباح، وما يصدر من الإنسان من أصوات مهملة ليس لها معنى، فإذا اقترن بمعنى فقد اختصّ بالإنسان وأصبح

(1) Saussure, 1968: 169.

نطقا، وهو ما ميّز به الإنسان من الحيوان عندما قيل في تعريفه: إنه «حيوان ناطق».

فإذا أطلق المتكلم اللفظ وأراد معنى ما في مقام تخاطبي صار ذلك استعمالا، والاستعمال نوعان: استعمال إبهامي يراد به التضليل كالتورية ونحوها، واستعمال بياني يقصد به إبلاغ مراد المتكلم لمخاطبه، والثاني وحده من نوعي الاستعمال الذي يمكن تسميته «الدلالة باللفظ» إذا ما اقتبسنا مصطلح الخسروشاهي والقرافي، وهو يحتاج إلى ثلاثة أنواع من الإرادة في أقل تقدير: إرادة التلفظ، وإرادة الاستعمال وإرادة الإبلاغ خلافا للتصويت الذي يفتقر إلى كل هذه الإرادات، وللتلفظ الذي يقتصر على الإرادة الأولى، وللاستعمال الذي يحتاج إلى الأولى والثانية[1].

وإضافة إلى ما سبق من التصويت والتلفظ والاستعمال والدلالة باللفظ لا بُدَّ من التعريج على ثلاثة مصطلحات أخرى ذات صلة بالموضوع وهي القول والكلام والخطاب.

أما القول فهو أعم من الكلام؛ لأنه يطلق على اللفظ المفيد

---

(١) محمد محمد يونس علي، تفريق القرافي بين الدلالة باللفظ ودلالة اللفظ: دراسة براغماتية لنموذج من المنهج الدلالي الأصولي (الأردن: مجلة مؤتة، جامعة مؤتة، مج ١٨، ع ٨، ٢٠٠٣).

سواء أكان مفردا أم مركبا[1]، وأما الكلام فلا يطلق إلا على التركيب المفيد فائدة يحسن السكوت عليها -كما هو شائع عند النحاة-، ولكن لا يشترط فيه الإرادة دائما لاحتمال صدوره عن النائم والغافل، وإن كان الغالب تعلقه بها خلافا للخطاب الذي يشترط فيه إرادة الكلام وإرادة الإبلاغ حتى لا يكادان ينفكان عنه، وهو بذلك أقرب إلى مصطلح الدلالة باللفظ.

٧- أنواع مسالك الخطاب

تبدأ عملية التخاطب بالاستعمال الذي يقوم به المتكلم وتنتهي بالحمل الذي يعزى إلى المخاطَب، ولا يتحقق التخاطب دون لجوء المتكلم إلى مسالك يحاول بها تحقيق غايته أو إيصال مقصوده لمخاطبه، وتتنوّع هذه المسالك بتنوّع غاياتها.

فثمة المسالك البيانية (التي ترتبط بمراد المتكلم من خطابه أهو البيان كما هو المعتاد أم التضليل كما في الإبهام والتورية؟)،

---

(١) لمناقشة معنى القول ينظر: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام، شرح اللمحة البدرية، تحقيق هادى نهر (بغداد: ١٩٧٧)، ١: ٢٠٠، وينظر أيضا: ينظر أبو عبد الله السلسيلي، شفاء العليل في إيضاح التسهيل، تحقيق الشريف عبد الله البركاتي (مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية، ١٤٠٦هـ)، ١: ١٠٧.

ويندرج تحتها المسالك التصريحية والتلميحية.

ومنها المسالك الموقفية أو التفاعلية (كالشك والحسم والحذر والهجوم والدفاع والتأدب).

ومنها المسالك البنائية التي تعنى بالشكل الخطابي، ويندرج تحتها نوعان: نوع على مستوى الجملة ويسمى مسالك النظم (الناشئة عن عملية بناء الجملة التي تأخذ شكلها النهائي في صورة ما يسمى بالأساليب أو أفعال الكلام كالإخبار والأمر والنهي)، ونوع على مستوى النص ويسمى مسالك التأليف، وتندرج تحتها المسالك النمطية (كالسرد والوصف والشرح والحجاج).

وهناك أيضا مسالك السوْق التي تسخّر فيها القرائن المنصوبة لخدمة مراد المتكلّم.

وكل ما ذكر من مسالك حتى الآن يرتبط بالمتكلم أو المؤلف وتُسمّى مسالك الخطاب. أما مسالك الحمل فترتبط بالمخاطب وتشمل مسالك التفكيك بنوعيه الوضعي والسيميائي، ومسالك التأويل، ومسالك التفسير، ومسالك التفاعل، وسنخصص لمسالك الحمل بحثا مستقلا في المستقبل إن شاء الله.

ويرتبط المسلك عادة بوسائل جزئية تقل أو تكثر لتنفيذه، فمسلك التصريح -مثلا- يحتاج إلى اتباع الأصول الوضعية، أو نصب قرينة تدل على العدول عن المعنى الوضعي، ومسلك

الحجاج يحتاج إلى وسائل الإقناع كالاستقراء والقياس والتعليل.

ويعد التمكن من بناء المسالك الخطابية من مشمولات الكفاية التخاطبية التي تشمل أيضا معرفة المتخاطبين بالمواضعات اللغوية المعجمية منها والقواعدية، وقدراتهم المنطقية، ومعرفتهم بأصول التخاطب ومعرفتهم بالمحيط الخارجي، وإلمامهم بكل السياقات التي لها صلة بموضوع التخاطب.

٧، ١- المسالك البيانية

ترتبط عملية التخاطب ارتباطا شديدا بمبدأ البيان الذي يقتضي أن نفترض حرص المتكلم على صوغ كلامه على نحو يتوخى فيه الصدق والدقة ومناسبة المقام التخاطبي، وإذا كانت هذه الشروط ضرورية للإيفاء بمستلزمات المسلك التصريحي، فإن التلميح قد يكون خيارا مستحسنا في كثير من المقامات التخاطبية. وقد انعكس هذا في مستويات الوضوح في الخطاب، وهو ما ألزم علماء الأصول الأحناف بالتفريق بين أربعة مستويات من الوضوح، وهي الظاهر، والنص، والمفسر، والمحكم، وقصروا جواز التأويل على الألفاظ التي تصنف تحت مقولتي الظاهر والنص فقط، كما ميزوا أيضا بين أربعة مستويات من الخفاء هي الخفي، والمشكل، والمجمل،

والمتشابه[1]. والشائع عند جمهور الأصوليين الاكتفاء بتقسيم اللفظ من حيث الوضح والخفاء إلى نص، وظاهر، ومجمل.

وإنما يتحقق الوضوح باتّباع الأصول الوضعية المستلزمة لما يأتي:

١- استعمال الحقيقة وتجنب المجاز

٢- استعمال الألفاظ المتباينة وتجنب المشترك اللفظي

٣- الذكر وتجنب الحذف والإضمار

٤- الالتزام بالترتيب وتجنب التقديم والتأخير

٥- الالتزام بالمساواة بين اللفظ والمعنى وتجنب الإيجاز، والإطناب.

فإذا ما التزم المتكلم بهذه الأصول فقد اختار مسلك التصريح، أما إذا عدل عنها بأي نوع من أنواع العدول سواء أكان عدولا كيفيا كانتهاك مبدأ الحقيقة، أو كميا بأن حذف أو أضمر أو كررّ أو أوجز أو أطنب، أو موقعيا بأن قدّم وأخّر، فإنه على الأغلب قد رجّح المسلك التلميحي. وقد يكون التلميح باللجوء إلى الوسائل الدلالية فيضمّن كلامه بعض

---

(١) ينظر أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي، أصول السرخسي، تحقيق أبو الوفاء الأفغاني (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣) ١/١٦٣-١٦٥، معز الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز ابن الملك، شرح المنار (دم: المكتبة العثمانية، ١٣١٩هـ)، ص ٣٥٣.

الافتراضات أو المفاهيم التخاطبية التي سنوضحها في موضعها من الكتاب.

أما المسلك الثالث الذي يميل إليه بعض المتكلمين فهو مسلك الإبهام، ويستعمل فيه وسائل مثل التورية والإلغاز. وقد أدرجت هذه الوسيلة ضمن المسالك البيانية (وإن كانت توحي بغير ذلك)؛ لأنها مكملة لها وتدخل معها في علاقة توزيع تكاملي.

٧، ٢- المسلك الموقفي

يقاس نجاح التخاطب بمدى مناسبة كلام المتكلم للمقام التخاطبي، وقد أولى علماء البلاغة هذا الأمر عناية خاصة حتى عرفوا البلاغة بأنها «مراعاة المتكلم لمقتضى الحال»[(١)]، ولذا فإن المتكلم مطالب بمعرفة المسلك المناسب لحال مخاطبه. يقول السكاكي:

«مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه

---

(١) جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح عبدالرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٠٢م)، ص٣٣.

الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال وإطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم. وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة، وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره، وإن كان المقتضى إثباته مخصصاً بشيء من التخصيصات فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها، وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب، أعني طي جمل عن البين ولا طيها، فحسن الكلام تأليفه مطابقا لذلك»[1] .

ولا يتوقف اهتمام المتكلم بالمقام الآني للمخاطب، بل يمتد ليشمل التعمق في شخصية المخاطب لمعرف النمط الذي تنتمي إليه؛ كي يكون خطابه ملائما لشخصية مخاطبه، فيختار

---

(١) أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم (القاهرة، البابي الحلبي، د ت)، ٧٣/١ .

الأسلوب الذي يتناسب معه، فنغمة الشك -مثلا- تتناسب مع الشخصية المنفتحة الناقدة، ونغمة الحذر تنسجم مع الشخصية القلقة التي تشعر بالظلم والاضطهاد فتنزع إلى اتخاذ موقف دفاعي لا تقبل فيه بالنقد، وغالبا ما يرتبط ذلك بعقدة النقص، ونغمة الحسم تتناسب مع الشخصية المنغلقة الاستبدادية، أما نغمة التيقن فتتناسب مع الشخصية التي يعوزها التفكير النقدي.

٧، ٣- المسالك البنائية

تعنى هذه المسالك بعمليتي بناء الجملة وبناء النص، وتشتمل على نوعين من المسالك: المسالك النظمية التي تظهر على مستوى الجملة في شكل ما يسمى بأفعال الكلام كالإخبار والأمر والاستفهام، والمسالك التأليفية المتمثلة في أنماط الخطاب السردي والوصفي والاستدلالي والشرحي.

٧، ٣، ١- المسالك النظميّة

يقصد بالنظم هنا ضم عناصر الكلام بعضها إلى بعض، وتعليق كل جزء من أجزاء الجملة بغيرها من الأجزاء، ويشمل الرصف linearization، والتموضع thematization، والاستبدال substitution.

يرتبط الرصف linearization بمستوى القولة عادة وإن كان

بعض اللسانيين يوسع دائرته ليشمل الفقرة أيضا[١]. ويقصد به هنا وضع العناصر اللغوية المستعملة في القولة في شكل خطي بحيث تتوالى فيه تلك العناصر مرتبة في استعمالها ترتيبا زمنيا، ويبدو هذا في الكتابة على شكل سلسلة ائتلافية تتجه في اللغة العربية من اليمين إلى اليسار.

يقوم الرصف أساسا على الإسناد predication الذي هو المكوّن الأساس للجملة، وهو المنشئ للنسبة الكلامية بين الموضوع والمحمول، وتقابل النسبة الكلامية نسبة ذهنية موازية، وترتبط النسبتان الكلامية والذهنية بنسبة ثالثة هي النسبة الخارجية عن طريق الإشارة reference.

وعندما تتوسعّ الجملة النواة المؤلّفة من عنصري الإسناد تنشأ علاقات تركيبية جديدة من قبيل علاقات الإضافة والنعت والبدل والعطف والتوكيد، وفي كل خطوة من خطوات التعليق المؤسسة لكل هذه العلاقات يحرص المتكلم على محاولة الملاءمة بين الاختيار على مستوى الاستبدال والمتطلبات الوضعية والاستعماليّة للائتلاف.

وبينما يعد التعجيم (أي تحقق المعنى المعجمي في المُصرِّف

(1) Veronika Ehricha & Charlotte Kosterb, Discourse organization and sentence form: The structure of room descriptions in Dutch (Discourse Processes, Volume 6, Issue 2, 1983) pp.169-195

morpheme والكلمة) والتقعيد (أي صوغ القواعد الصرفية والنحوية) من المعطيات الوضعية التي لا أثر فيها للمتكلم فإن اختيار ما هو مناسب للمقام التخاطبي من بين البدائل المعجمية والصيغ الصرفية والأنماط النحوية الممكنة يحتاج إلى مسلك خاص لتحقيق غرض المتكلم.

ويتوقف الاستبدال على رغبة المتكلم في الطريقة التي يريد أن يورد بها المعنى من حيث الدقة الدلالية والشحنات العاطفية التي تكتنف الكلمات ومدى إيحاءاتها، كما أن غايات الخطاب وأغراضه ترسم شكل التقاطع بين محور الاستبدال والائتلاف وتتحكم في توجه المتكلم نحو الذكر أو الحذف، والإضمار أو الإظهار.

ويرتبط الرصف كذلك بالتموضع thematization وهو ترتيب الموضوع والمحمول وفقا لأولويات التبئير focality (أي تقديم ما ينال عناية المتكلم على غيره من العناصر اللغوية المستعملة)، وهو وإن كان محكوما بمقتضيات الوضع جزئيا فإن ما تتيحه مندوحة الاستعمال يسمح للمتكلم أن يعبر عن أغراضه البلاغية إلى حد كبير.

ويتفاوت المتكلمون في إبراز قدراتهم على إحداث تغييرات موقعيّة واختيارات كمّية وكيفية تحقق لهم أغراضهم بقدر ما يملكون من كفاية بلاغية وتخاطبية.

وترتبط الإفادة ارتباطا وثيقا بتمييز المتكلم بين ما يعتقد أنه

معلوم للمخاطب فيعامله على أنه مسلّمة، وبين ما يضيفه إلى علم مخاطبه وهو المتعارف عليه في الدراسات التخاطبية بالإضافة.

ولعل من أهم مستلزمات الرصف أن كل عنصر لغوي مُستعمَل يفرض قيودا قواعدية ودلالية وسياقية على ما يأتي بعده من عناصر بحكم قواعد الائتلاف المتعلقة باللغة المستعملة، ولربما كانت استتباعات المطابقة، وعلامات الإعراب بأنواعها المختلفة في العربية أوضح مثالا على القيود القواعدية. أما القيود الدلالية فتتصل اتصالا وثيقا بالسمات المنطقية والمعجمية لكل كلمة من الكلمات المستعملة ومدى ملاءمتها لما سبقها وتلاها من كلمات، كما أن مناسبة السياق الداخلي والخارجي وشروط التماسك المنطقي والنصي تعد معيارا جوهريا لتمكين الكلام المرصوف من القبول، وقد أكد عبد القاهر الجرجاني ذلك بقوله: «ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه الفعل»(١) .

وفي كل خطوة من خطوات الرصف يتطلب النظم أن

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق الشيخ محمد رضا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص٤١ .

يختار المتكلم من محور الاستبدال ما يرغب في اختياره أو مما يقتضيه السياق أو تفرضه قواعد اللغة، وهكذا فإنه بإمكان المتكلم أن يقول مثلا: «مناهضو (أو مناوئو أو معارضو أو مناصرو) العولمة يتظاهرون في شوارع أوروبا» وفقا لمقاصده وأغراضه التخاطبية، وبذلك يكون قد اختار واحدا من الخيارات التي تدخل مع الخيارات الأخرى في علاقة تغاير؛ لأن معنى كل خيار يختلف اختلافا جزئيا أو كليا عن الآخر مهما قلّ أو كثر هذا الاختلاف، ولكنه لا يستطيع أن يقول «مناهضي العولمة»؛ لأن العلاقة هنا بين الخيارين (أعني بين «مناهضو» و«مناهضي») علاقة تشابه؛ أي أن اللفظين بمعنى واحد، ولكن قواعد اللغة تسمح بخيار واحد فقط هنا بين الخيارين وتترك الباقي لسياق آخر.

وعلى الرغم من ذلك، تتيح اللغة خيارات نظمية متنوعّة لإتاحة الفرصة للمتكلم انتهاج المسلك المناسب لغرضه، ومن بين الخيارات النظمية الشائعة مسلك البناء للمجهول، وهو طريقة في النظم محكومة بالتبئير والعدول الكمي؛ أي أن المتكلم قد يستعمل البناء للمجهول للتركيز على المفعول به الذي يصبح نائب فاعل بعد حذف الفاعل، ويرتبط العدول عن الأصل (وهو ذكر الفاعل) بمسوّغات تخاطبية منها عدم تعلّق فائدة بذكره، أو الجهل به، أو الخوف منه أو الخوف عليه أو غير ذلك من الأسباب المتداولة في كتب النحو.

ومما هو حريّ بالذكر هنا أن النظم يتسم بسمة التعقيد، فعلاوة على ما سبق من وسائل بنائية ممثلة في الرصف وما يقتضيه من تموضع وتبئير واختيار من محور الاستبدال، فإن من مهماته الشاقة تحويل البنية الدلالية العميقة إلى بنية قواعدية سطحية تراعى فيها القضايا الدلالية من نحو التضمن والافتراض والمفاهيم الخطابية كمفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة ونحو ذلك. وسيجرنا هذا إلى الحديث عن نوعين من الدلالة يعد كلا منها مسلكا نظميا دلاليا، هما الدلالة الكلامية أو الوجودية والدلالة العدمية أو السكوتية.

٧، ٣، ١، ١- الدلالة الكلاميّة والسكوتيّة

إن البنية الدلالية للخطاب أعقد وأغنى مما يمكن أن نتصور، ولتوضيح ذلك فلنتساءل: ما الذي يمكن أن يخطر ببالي عندما يسألني طالب: كم لديك ولد؟ وكيف يمكن أن نعبر عما يمكن أن يخطر ببالي؟ ولعل أول ما يرد إلى الذهن هو منطوق كلامه، وهو أن الطالب يقول: كم لديك ولد، ثم تتوالى الاحتمالات الممكنة من مثل: الطالب ينطق بكلام معناه كم لدي ولد، الطالب يرغب في معرفة كم لدي ولد، الطالب يريد أن يعرف كم لدي ولد، الطالب يسأل كم لدي ولد؟، الطالب يعتقد أن لدي ولدا أو أكثر، الطالب يفترض أن لدي ولدا أو أكثر. ويمكن أن نوسع الدائرة بنحو: الطالب يفترض أنني متزوج، الطالب

يفترض أنه لن يكون لي أولاد ما لم يسبق لي الزواج. ويمكن أن نوسع الدائرة أكثر ببعض الاستنتاجات: الطالب يعرف العربية ويملك من مواضعاتها الحد الذي يمكنه من أن يسأل كم لدي ولد، الطالب يتصرف بمقتضى الأعراف التخاطبية في إثارة السؤال، الطالب يشعر بالقرب مني ولذا سألني هذا السؤال، الطالب جريء إلى الحد الذي يمكنه من هذا السؤال، الطالب يهمه أن يعرف كم لدي ولد. ويمكن أن نوسع الدائرة أكثر ببعض الاستنتاجات: الطالب يتوقع مني أن أجيبه عن سؤاله، الطالب يطلب مني شيئا ويتوقع أن ألبي له طلبه، وهلم جرا.

وهكذا فإن ما قاله المتكلم لا يعد شيئا أمام ما يمكن أن نستنتجه من كلامه، وإذا كان بعض ما ذكر قد يعد من الافتراضات والتضمنّات المندرجة في قولة الطالب، ومن ثمّ يمكن عدّه من قبيل الدلالة الكلامية، فإن بعض أنواع المعنى مثل ما يعرف في علم أصول الفقه بمفهومي الموافقة والمخالفة يمكن إدراجه في الدلالة السكوتية. والمقصود بها ما يستلزمه اللفظ بالحكم دون النطق به، وذلك عند إضافة قيد إخراجي يترتب عليه استبعاد ما لم ينطبق عليه ذلك القيد. ومن أمثلته «خمس رضعات يحرمن» التي تستلزم أن الست فما فوقها تحرم أيضا على سبيل الموافقة من باب أولى، وتستلزم أيضا أن الأربع فما دونها لا تحرّم. ومن الواضح أن الدلالة السكوتية ترتبط بنظرية التقييد ونظرية الاستبدال.

ويمكن أن نصوغ ضابطا هنا للتقييد في ضوء محور الاستبدال:

(كلما قوي التضاد بين البدائل الممكنة قويت الدلالة السكوتية).

وتصل مداها عندما يصبح البديل واحدا فقط وهو البديل النقيض، أو البديل السالب.

ومثلما لا حظنا فإن من الدلالات المنبثقة عن الدلالة السكوتية مفهوم المخالفة، ومن أمثلتها «في الغنم السائمة زكاة» الذي يستنتج منه أن المعلوفة لا تجب فيها زكاة؛ لأنه قيّد الغنم بالسوم، وسكت عن المعلوفة، ولما كانت السائمة مناقضة للمعلوفة كان حكمها مخالفا.

وقد تأخذ الدلالة السكوتية اتجاها مختلفا عن اتجاه المخالفة، وذلك عندما يكون هناك شبه بين المذكور والمسكوت عنه وتكون العلة الجامعة بينهما أقوى في المسكوت عنه، فيغلب جانب الموافقة بقياس المسكوت عنه على المذكور، ويعطى له حكمه، كما في «من يحصل على جيّد جدا يستحق جائزة»، فمن بين المسكوت عنه هنا هو حكم من يحصل على امتياز، وهو أنّه مستحق للجائزة بلا ريب، بل إن استحقاقه للجائزة من باب أولى. أما من يحصل على أقل من جيّد جدّا فيطبق عليه مفهوم المخالفة.

وبالتزامن مع كل ما سبق فإن المهمة الأخرى (وهي المهمة

الجوهرية المنوطة بالمتكلم على المستوى النظمي تلك التي تظهر المسلك النظمي في شكله النهائي) هي تحويل بنية الجملة إلى أسلوب مناسب لتحقيق غاياته الخطابية وبلوغ كنه أغراضه التخاطبية، ويتأتى ذلك عادة بالتوسّل بما يسمى بأفعال الكلام، من نحو الإخبار: (على سبيل الإثبات، أو النفي، أو الترسّل، أو التوكيد)، والطلب بأنواعه: الاستعلائي كالأمر والنهي، والالتماسي كأن يطلب من الصديق أن يفعل شيئا، والتضرّعي كالدعاء والاستغاثة، والاسترحامي كالاستعطاف، والرجائي كالتمني والترجي.

وعندما يختار المتكلم الإخبار فإنه مخيّر بين أن ينحو منحى الإثبات أو النفي، وكذا فهو مخيّر بين أن يترسّل أو يؤكد فحوى كلامه، وعندما يطلب فإن طلبه متوقف على مرتبته من مخاطبه وعلى مدى إمكان تحقق ما يطلبه، فيأمر أو ينهى من هو دونه، ويلتمس من مساويه، ويتضرّع بدعاء خالقه ويستغيث به، ويستعطف من هو أعلى منه، ويرجو ما يراه ممكنا، ويتمنى ما يراه مستبعدا أو مستحيلا.

إن الاعتقاد بأن الكلام ما هو إلا حدث قولي وتجنب طابع «الفعلية» فيه مجانب للصواب، وينضوي على إضعاف ضمني لأهمية اللغة في حياتنا: إن الأب عندما يريد من ابنه أن يركب في السيارة قد يبدأ بحمله على كتفه ثم يضعه في الكرسي الخلفي للسيارة، ولكن هذا لن يستمر طويلا؛ لأنه

بمجرد أن يحقق الطفل الحد الأدنى من الاعتماد على نفسه في المشي ستنوب كلمة «اركب» عن كل ما كان الأب يفعله سابقا، وهو ما يعني أن عبارة «اركب» حلت محل الفعل الذي كان يقوم به الوالد، وإن لم تكن لها القوة الإنجازية التي يتحقق بها الفعل في الواقع، وقد تقودنا قصة الاستعاضة بفعل الأمر عن حمل الولد هذه إلى استنتاج أننا إنما نلجأ إلى اللغة كلما شعرنا أنها توفر لنا جهدا يتطلبه القيام بفعل ما، غير أن هذا في الواقع ليس كل شيء يمكن للغة أن تقوم به؛ وذلك لأننا نلجأ إليها أيضا للقيام بأفعال لا يمكن فعلها بدونها، وهكذا فإن عبارة «أنت طالق» عندما يقولها الزوج لزوجته وعند توفر الشروط المناسبة سيترتب عليها أفعال ذات صلة: كالهجر، والانفصال، والابتعاد إلخ، وهي أفعال لا تحدث لولا صيغة الطلاق.

إن كثيرا مما نعده من الأقوال ونتعامل معه على هذا الأساس لا يخطر ببالنا أنه من الأفعال، ومن ذلك القراءة، والحكي، والنصح، والوعظ، والتدريس، والإرشاد، ولا يمكن لنا تصوره على حقيقته إلا عندما نضعه في جواب ماذا تفعل؟ ويكون الجواب حينئذ:

أقرأ نشرة الأخبار، أو أحكي له قصة، أو أنصح ابني، أو أعظ طلابي، أو أدرس الأولاد، أو أملي على زوجتي طريقة صنع الكعكة.

تعد أفعال الكلام -إذن- النتيجة النهائية لعملية النظم، وهي أهم المسالك النظمية التي نحقق بها أغراضنا وغاياتنا التخاطبية، فإذا أردت أن أطلب شيئا فبإمكاني -مثلا- أن نفعل ذلك بالأمر أو بالدعاء أو الالتماس، وإذا أردت إعلام مخاطبي بشيء ما فما عليّ إلا أن أخبره بذلك. وقد كان لأوستين Austin وسيرل Searl الفضل في التنبيه على أن استعمال عبارات اللغة لا يقف عند حد القول فقط، بل هو فعل ذو تأثير فيما حولنا. ويأتي هذا الرأي ردا على الاعتقاد السائد عند أتباع المدرسة الوضعية المنطقية التي ترى أن القولة اللغوية تستعمل لوصف الوقائع أو الأحوال، وأنه لا يمكن أن تكون للقولة معنى ما لم يثبت صدقها.

إذن نحن الآن أمام ثلاثة أنواع من الأفعال: الفعل اللفظي locutionary act، وهو القول أو النطق بالقولة، والفعل القصدي illocutionary act، وهو قصد المتكلم من قولته كالاستفهام أو الإخبار، وقد عُدّ «الوحدة الصغرى للتخاطب اللغوي»[1]،

(1) Friedrich Christoph Dörge. Illocutionary Acts: Austin's account and what Searle made out of it (Inaugural-Dissertation, PhD, der Fakult?t für Philosophie und Geschichte der Eberhard-Karls-Universit?t Tübingen, 2004), p.71.

والفعل التأثيري prelocutionary act وهو التأثير الذي أحدثه القول في المخاطب كتصديق الخبر، أو طاعة الأمر.

٧، ٣، ٢- المسالك التأليفيّة

المقصود بالتأليف هنا بناء النص سواء صغر حجمه ككتابة الرسالة أم كبر ككتابة مسرحية أو كتاب. ومع أننا لا نجد في المعاجم ما يخبرنا بأن معنى التأليف وضعا يختلف عن معنى النظم، بيد أن الاستعمال يجعل كلمة «تأليف» أنسب لبناء النص من كلمة «نظم»، ولذلك استعملنا «النظم» لبناء الجملة، و«التأليف» لبناء النص.

تعد «كفاية التأليف» أرقى أنواع الكفايات التخاطبية؛ لأن اكتسابها لا ينحصر في التمكن من معرفة العناصر المعجمية والقواعدية والبلاغية والأسلوبية للغة المستعملة، بل يشمل أيضا مهارات منطقية ومنهجية عليا يحتاج تعلمها عادة إلى تعليم مدرسي؛ إذ لا تكفي الكفاية اللغوية حتى في كتابة أبسط أنواع النصوص ككتابة الرسالة أو المقال ما لم يتدرب المؤلف على ذلك تدريبا خاصا. ومن ثمّ فإن مسلك التأليف هو مسلك خطابي خاص بمن يأنسون في أنفسهم الكفاية في بناء النص.

ومن المعلوم أن النصوص تتفاوت في بلاغتها وجودتها وجمالها، ولكن الحد الأدنى الذي يعطي لقطعة من النثر سمة «النصية» تتطلب توفر شرطين في الأقل:

١- التنظيم

يتحقق التنظيم بما يشتمل عليه النص من تقسيم وتفريع، وهو أمر يختلف باختلاف نوع النصوص وحجمها، فالكتب – مثلا– تقسم عادة إلى فصول (أو أبواب وفصول)، ثم تقسم الفصول إلى مباحث، والمباحث إلى فقرات. أما المقالات فيكتفى فيها عادة بمقدمة وخاتمة ووسط يشتمل على قضايا متبوعة بأدلة أو أمثلة أو تفاصيل قد تشتمل على إحصائيات ونحوها، وتقسم الأفكار الواردة في المقال إلى فقرات تتناول تلك الأفكار، وتشتمل كل فقرة على جملة مفتاحية تحمل الفكرة الأساسية تعقبها عادة جملا داعمة لتلك الجملة على سبيل التفصيل أو التعليل أو الشرح أو التمثيل. أما في السرد فإن الحكي والشخصيات والزمان والمكان والحدث والحوار من الأركان الأساسية التي يقوم عليها العمل القصصي أو الروائي، ويتفاوت القصاصون والروائيون في عرض تلك العناصر، ورسم صورة التفاعل بينها، وكيفية التدرج في الانتقال من التمهيد إلى العقدة إلى الحل أو النهاية .

٢- الاتساق والتماسك

يقصد بالاتساق coherence الترتيب الذي يأخذه النص في بنيته الداخلية العميقة، وهو يختلف باختلاف نوعه، فقد يكون الترتيب زمانيا ينتقل فيه من الحدث الأقدم إلى

الأحدث، أو منطقيا تتسلسل فيه المقدمات لتقود إلى نتائج مناسبة، أو غير ذلك؛ إذ ليس ثمة نمط حتمي خاص، بل الكاتب هو الذي يخلق المنطق الخاص بالنص اعتمادا على قدرته على رسم التمهيد المناسب للغرض المستهدف، وعلى صوغ الكيفية التي ينتقل بها من المقدمات إلى النتائج. أما التماسك cohesion فهو الربط العضوي بين أجزاء النص على نحو تبدو فيه تلك الأجزاء متوقفة بعضها على بعض كالبنية الواحدة أو العضو الواحد، ويحدث عادة بوسائل لغوية خاصة كالضمائر وأسماء الإشارة وأدوات الربط والحذف والتكرار والإبدال، وقد يكون للقرائن الخارجية المصاحبة للنص تأثير في إحداث هذا التماسك أو تعزيزه.

ويمتاز بناء النص بالسمة التراكمية، الأمر الذي يجعل من المسلك التأليفي مهمة معقدة؛ إذ تحتاج كل جملة جديدة في النص إلى عملية إدراج واعية تتطلب تحديد علاقتها بما قبلها وبما سيأتي بعدها من جمل، وقد يختل البناء النصي بسوء الاستهلال أو التخلص، أو سوء استعمال وسائل التماسك، أو بعدم اتباع ضوابط الوصل والفصل، أو بالإخفاق في تكوين بنية منطقية مقبولة للقارئ. وربما لا نبالغ إذا ما قلنا إن القارئ قد ينزعج من احتواء النص على أخطاء نحوية أو إملائية أو أسلوبية أو مطبعية، ولكن أشد ما يزعجه اختلال البنية المنطقية للنص، أو افتقاره إلى التماسك العضوي أو اللفظي.

وقد عبّر حازم القرطاجني عن ذلك بقوله: «فالذي يجب أن يعتمد في الخروج من غرض إلى غرض أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض، وأن يحتال في ما يصل بين حاشيتي الكلام ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما، فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام؛ فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له، ومنتقلة من معنى إلى معنى مناسب له، ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما وجدت النفس في طباعها نفورا من ذلك ونبت عنه، كانت بمنزلة المستمر على طريق سهل، بينا هو يسير فيه عفوا إذ تعرض له في طريقه ما ينقله من سهولة المسلك إلى حزونته ومن لينه إلى خشونته»[1] .

وتشمل مسالك التأليف ما يمكن أن يسمى المسالك النمطية التي يمكن تلخيصها في السرد، والوصف، والاستدلال، والشرح، وسنعرض لكل نوع من هذه الأنواع فيما يأتي:

(١) منهاج البلغاء، ص ٣١٨ .

٧، ٣، ٢، ١- المسلك السرديّ

لعلّ مما هو غائب عن الكثيرين أنّ وظيفة السارد وظيفة خطيرة، وأن ما يمكن أن يعبر عنه السارد بسرده أكثر بكثير مما يظن أو يعتقد؛ فهو يتحكم في عالم القصة أو الرواية: العناصر، والشخصيات، والزمان والمكان، والعُقد، والحوار، وغير ذلك؛ أي إنه ينسج عالما جديدا من خياله، ومهما اقترب أو ابتعد ذلك العالم في شكله عن العالم الحقيقي فإنه من صناعة مؤلفه، وفي خدمة أغراضه وغاياته. وبذلك يكون السارد قد تسلّح بأنواع من السلطات منها سلطة تجاوز الواقع وسلطة الإبداع، وسلطة التأليف، فضلا عما له من سلطات ومسالك أخرى ليس أقلها شخصنة المجرّد والمتخيّل لتكثيف شحنة الإقناع العاطفي. وهذا المسلك بالذات قد يستغله أحيانا بعض المؤلفين لقدرته العجيبة على التسلل إلى مدارك المخاطَب حينما يصبح الاستسلام لحيل السارد نتيجة حتمية لضغوطات السرد المتراكمة في غفلة من الرقابة العقلية الناقدة.

وفي السرد -كما في غيره- فإن أجزاء النص تصحّح بعضها بعضا كي يبدو النص متناسقا ومتماسكا منطقيا، ومما يزيد من تقبل العمل السردي ويزيد من تأثيره في نفوس متلقيه أن أجزاءه واقعية عادة؛ إذ لا يمكن تخيل صورة مركبة دون أن تكون أجزاؤها -في الأقل- محسة سابقا، وأما التركيب فهو من عمل المؤلف، وهذا يعني أن المتصورات الجزئية المفردة واقعية،

في حين أنّ مركباتها إما خيالية محضة أو محاكية للواقع ممثلة له أو واقعية مقتبسة منه، ولتوضيح ذلك نقول إن كلمة «ملك» كلمة واقعية يمكن تصورها والتصديق بها ما لم تظهر القرائن عدم صحتها، وأما عند تركيبها مع تونس -مثلا-، كأن يقال: «ملك تونس»، فهو محض خيال (ويمكن أن يوصف بأنه كذب إذا ما ادعى مؤلفه بأنه يتحدث عن الواقع)؛ لأن العالم الخارجي يكذبه، وقد تكون حقيقة أو محاكية للواقع كما في ملك الدولة التي يتحدث عنها الراوي إذا كانت لها مملكة فعلا.

إن الفرق بين السرد الخيالي وذكر الوقائع يعود في كثير من أحواله إلى ادعاء المؤلف ومبادئ التخاطب، فبينما لسان حال القاص أو مقاله يقول أنا أحكي لكم قصة خيالية، نجد أن من يذكر الوقائع يدّعي مطابقة كلامه للواقع، وهو فرق في استعمال مبدأ الكيف، وهناك حالات أخرى يعود فيها اكتشاف السرد الخيالي إلى الشكل والصياغة، كما في ذكر تفاصيل الوقائع التي لا يعرفها عادة غير من يقوم بها.

ويمكن تقسيم السرد من حيث الحمل الدلالي إلى

أ - السرد الفارغ: وهو أبسط أنواع السرد، ويتسم بالسطحية والمباشرة والاعتماد على ذكر الأحداث المتوالية دون الخوض في بواطن الأمور، وخلفياتها، وتشعباتها.

ب - السرد المبطّن: وهو ما يحتوي على افتراضات، ويشحن

بحكم وتجارب، وقد يعبر عن مواقف فلسفية أو فكرية أو سياسية أو اجتماعية.

ت - السرد الإيحائي: وهو الذي تكتنز فيه الألفاظ بإيحاءات نفسية واجتماعية، وهو شائع جدا في القصص والروايات، حيث ينتقي المؤلف المفردات المشحونة بظلال عاطفية متوسلا بالتجسيم والتشخيص لخلق أثر نفسي في المتلقي.

ث - السرد الرمزي: وهو ما يقوم على الإيماء والكناية وربما التورية والإبهام، ويكتنز بالتكثيف الزماني والمكاني، وعادة ما يلجأ إلى مسلك السرد الرمزي عند التعبير عن المكبوت، والممنوع، والتابو، كالتعبير عن مواقف الكاتب في الظروف الاستبدادية القمعية، والاضطهاد الاجتماعي أو الديني، ويستثمر فيه حوار الشخصيات بالتوسل إلى لغة ازدواجية تنطق بظاهر المعنى وتخفي المراد منه، ولعل قصص كليلة ودمنة مثال جيد على هذا النوع من السرد.

كما يمكن أن ينقسم السرد من حيث الأسلوب إلى

أ - السرد الإخباري الذي تروى فيه حادثة معينة، كحادث مرور أو جريمة قتل.

ب - السرد التاريخي الذي يتحدث فيه المؤرخ عن حقبة زمانية معينة، ويسرد حوادثها.

ت - السرد الحكائي: ويشمل السرد القصصي، والروائي.

٧، ٣، ٢، ٢- مسلك الوصف

يقسم الوصف عادة إلى الوصف الموضوعي: وهو وصف يسعى لإظهار الموصوف كما هو في الواقع، وقد يستعمل لأغراض علمية، وهو ما يسوغ تسميته بالوصف العلمي، ويحرص فيه الواصف على الاستقصاء والدقة والموضوعية، وغايته التوضيح ورسم صورة للموصوف مضاهية لحقيقته، والوصف الأدبي: وهو وصف يمتزج فيه الموصوف بالرؤية الذاتية للواصف انطلاقا من تجاربه الخاصة ومشاعره النفسيّة، ويتوسّل فيه بالوسائل البلاغية البيانية كالتشخيص والتجسيم، والمحسّنات البديعية كالجناس والطباق.

وقد تكون المقارنة من أنجع الوسائل التي يلجأ إليها الأدباء لرسم صورة الموصوف، ومن أمثلة ذلك ما يروى من أن أعرابيا رأى «ابنا له يختطّ منزلا بطرف عصاه، فدنا منه، وقال:»أي بنيّ إنه قميصك، فإن شئت وسّعت، وإن شئت ضيّقت»، فصوّر البيت في صورة القميص لما بينهما من التصاق بالإنسان، وإحاطة به، فضلا عن كونهما رمزا للمحل الذي تتجلى فيه الحرية في أبهى صورها ابتداء من حرية الاختيار في توسيعه وتضييقه وانتهاء من حرية التصرف فيه. ويفتح هذا النوع من الوصف الباب واسعا للتأويل والتفسير، ويجد فيه النقاد ما لا يجده غيرهم، يقول أحدهم تعليقا على هذا الوصف: «وفي حركة الأعرابي تلك جملة من الحقائق المرتبطة بفلسفة المكان.

قد لا نجد فيها - لأول وهلة - سوى إشارة إلى السعة والضيق الماديين. ويقف نظرنا عند البيت، وقد تفسّحت أرجاؤه، أو ضاقت أقطاره، وغدت حرجة تعوق الحركة و الانبساط. بيد أن التروي قليلا، وتجاوز المنزل إلى القميص، يكشف شيئا جديدا في معضلة المكان. مادام القميص ألصق الأثواب بجسد الإنسان، وألوط به. وكأن المنزل -وهو يكتسب خصوصية القميص- يصير امتدادا للجسد ذاته. يجد فيه نعت الانبساط السالف دلالة جديدة، تجعل راحة الجسد لا تقف عند حدود أعضائه، وإنما تمتدّ لتشمل المكان كلّه. بل وأكثر من ذلك، قد يكتسب المكان في أثر رجعي، من الجسد انبساطه الخاص، فتسري فيه أحاسيس صاحبه جيئة وذهابا، في تبادل عجيب يعطي للمكان حياة، يتعذر على النظرة العجلى استكناه أسرارها»[١] .

ويتناول الوصف الحسي عادة الحجم أو الشكل أو اللون أو الرائحة أو الوزن أو الوظيفة، ويمكن أن يتناول محتويات الكون من سماء ونجوم ومظاهر طبيعية كالجبال والسهول والبحار والأماكن والأزمنة أو الأشخاص وما يتعلق بها من ملامح أو مشاعر أو أعمال، ومن أمثلة ذلك هذا الوصف لإحدى الديار الخالية:

---

(١) حبيب مونسي ، فلسفة المكان في الشعر العربي : قراءة موضوعتية جمالية (دمشق : اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠١) ، ص ١٧ .

«دار لبست البلى وتعطلت من الحلى، صارت من أهلها خالية بعدما كانت بهم حالية، قد أنفد البين سكانها وأقعد حيطانها، دار شاهد اليأس منها ينطق، وحبل الرجاء فيها يقصر، كأن عمرانها يطوى وخرابها ينشر، أركانها قيام وقعود، وحيطانها ركع وسجود»[(١)] .

ومنه أيضا هذا الوصف لقلعة حصينة:

«قلعة متناهية في الحصانة، ممتنعة عن الطلب والطالب، منصوبة على أضيق المسالك وأوعر المناصب، لم تزدها الأيام إلا نبؤ أعطاف، واستصعاب جوانب وأطراف، قد مل الملوك حصارها، ففارقوها عن طماح منها وشماس، وسئمت الجيوش ظلها، فغادرتها بعد قنوط ويأس، فهي حمى لا يراع، ومعقل لا يستطاع، كأن الأيام صالحتها على الإعفاء من الحوادث، والليالي عاهدتها على التسليم من القوارع»[(٢)] .

ولعل من أهم أنواع الوصف وصف الشخصيات لاستبطان

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، تحقيق لجنة من الجامعيين (بيروت : : مؤسسة المعارف ، د ت) ص٣٢٨ .

(٢) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ص ٣٢٧ .

مشاعرها، وكشف دوافعها ونوازعها، ويشيع عادة في الروايات ونحوها من الأعمال السرديّة.

ويرمي الواصف عند إبرازه صفة من صفات الشخصية على نحو انتقائي إلى التأثير في المخاطب بإثارة إعجابه بالشخصية أو حبه لها أو بغضه لها أو تنفيره منها، إنه ليس وصفا بريئا على أي حال. ولا بد أن تكون الملامح الموصوفة مناسبة للغرض الذي يحوم حوله الواصف دون استطراد يشتت الانتباه وينتهك سمة التماسك في النص ويقطع حبل انسيابه وتسلسله، وإلا قد يؤدي ذلك إلى إبطاء السرد والإخلال باتساقه وتماسكه.

ومن نماذج وصف الشخصيات نقتبس هذا المقطع من رواية لنجيب محفوظ:

«ولم يكن رأى من وجهها سوى عينيها، استقرت عليهما عيناه لحظة حين التفاتته إليها، عينان نجلاوان ذواتا مقلتين صافيتين وحدقتين عسليتين، وبدتا لغزارة أهدابهما مكحلتين، تقطران خفة وجاذبية، فحركتا مشاعره»[(١)] .

ويرتبط الوصف عادة بغايتين تخاطبيتين هما الإفصاح والتأثير، وتتعدد أغراضه لتشمل التمييز والمدح أو الذم أو الهجاء أو التقبيح أو الترغيب أو الترهيب أو التنفير. ومن أمثلة

---

(١) نجيب محفوظ ، خان الخليلي (القاهرة : دار مصر للطباعة ، د ت) ، ص٣٣ .

التنفير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، حيث اشتمل على تنفير من جهة العقل؛ لأن العقول البشرية لا تستسيغ أكل لحوم الميت، ولاسيما إن كان الميت إنسانا، وتقزيز من جهة الذوق والعاطفة؛ لأن نفس الإنسان جبلت على كره ذلك، ومن جهة الدين؛ لأنه يحرم أكل الجيفة، فما بالك بجيفة البشر، وقد علّق ابن القيّم على ذلك بقوله:

«وهذا من أحسن القياس التمثيلي فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت. ولما كان المغتاب عاجزا عن دفعه بنفسه بكونه غائبا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن كان ذلك نظير تقطيعه لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه، ولما كان المغتاب متفكها بغيبته وذمه متحليا بذلك شبه بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولما كان المغتاب محبا لذلك معجبا به شبه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه للمحسوس»[١].

وأبلغ أنواع الوصف وأكثره تأثيرا ما يلتقط الأثر الذي يتركه الموصوف في من حوله، ومما جاء على هذا النمط قوله تعالى في وصف يوسف -عليه السلام-: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]، فبسبب ما اعترى النسوة من دهشة وإعجاب لم يعدن يشعرن بألم السكاكين الجارحة عند النظر إليه، وقد نقل إلينا أثر الموصوف في من حوله هنا؛ ليترك الحرية للمتلقي في أن يحلق بخياله في تصور من اتسم بالحسن الأخاذ وبلغ من الجمال منتهاه حتى كاد ألا يكون بشرا، بل هو كائن من عالم آخر؛ عالم الملائكة الكرام.

إن سر التأثير في الوصف ولاسيما ذلك النوع الذي يأخذ شكل التصوير أنه يقدّم الدعوى مدعومة بالدليل، فثمة فرق كبير بين أن تقول إن يوم القيامة يوم مفزع ومخيف وبين هذا الوصف المزلل لذلك اليوم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَل كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى

---

(١) ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، الأمثال في القرآن الكريم ، تحقيق : إبراهيم بن محمد (طنطا : مكتبة الصحابة ، ١٩٨٦) ، ص٣٣ .

النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شديد ﴾ [الحج: ٢] فقدّم الدعوى، وهي شدة معاناة الناس من عذاب يوم القيامة مصحوبة بالبراهين، وهي ذهول المرضعات عن مواليدهن، وإجهاض الحوامل، وغياب العقل أو اضطرابه. وقد استعملت كلمة مرضعة بدلا من مرضع للإشارة إلى أنها في حال التلبس بالإرضاع؛ أي أنها مرضعة بالفعل وليس فقط بالقوة كما يقول المناطقة، وكونها مزاولة للرضاعة وطفلها يلقم ثديها إنما هو دليل على أن ذهولها عنه أمر مستبعد، فإذا ذهلت عنه وهو منها بهذه الحال، كان ذهول غيرها أولى، وكل ذلك يدلّ على شدة الفزع والهلع. وقد عبر بكلمة كل في «كل مرضعة» و«كل ذات حمل» و«ال» التي لاستغراق الجنس للدلالة على أن الذهول يحدث لجميع المرضعات، والوضع لكل الحوامل، وحالة السكر لكل الناس دون استثناء، وهو ما يؤكد هول ذلك اليوم وشد معاناتهم وعظم ما أصابهم من رعب.

٧، ٣، ٢، ٣- مسلك الاستدلال:

الاستدلال نمط من الخطاب يرمي إلى حث المخاطب على القناعة بأمر ما بتقديم دعوى مدعومة بواحد أو أكثر من الأدلة والإحصائيات والأشكال التوضيحية وضرب الأمثلة والاستشهادات والتوجيه العاطفي.

وقد مر الاستدلال في تاريخه الطويل بمراحل مختلفة، بيد أن الهيمنة بقيت طيلة الأربعة وعشرين قرنا الأخيرة، للبرهان الأرسطي بمبادئه الأساسية، وربما كان أهمها:

١- مبدأ الهوية: وهو مبدأ يقول بأن أ = أ ثابتا دون تغيير .

٢- مبدأ عدم التناقض: وهو مبدأ انفراد النقيض أي عدم اجتماع النقيضين معا، فإما حياة أو موت، وإما سكون أو حركة، ولا يكون الشيء حيّا وميّتا أو ساكنا ومتحركا في الوقت نفسه .

٣- مبدأ الثالث المرفوع: وهو مبدأ استحالة الخلو من أحد النقيضين؛ إذ لا يجوز ارتفاعهما معا، فالشيء إما ساكن أو متحرك، وإما حي أو ميت، ولا يجوز أن تفارقه الصفتان المتناقضتان معا .

٤- مبدأ السببية وهو علاقة بين حدثين يكون للأول منهما تأثير في الثاني، ويسمى المؤثِّر سببا، والمؤثَّر فيه نتيجة .

خلقت هذه الأسس المنطقية وغيرها من عناصر القياس الإغريقي نوعا من القولبة العقلية الصورية الصارمة للتفكير البشري لتصون العقل من الوقوع في الزلل، ولكنها واجهت تحديات مختلفة من مناوئيها عبر العصور[١]، ثم ظهر المنهج

---

(١) لعل من أهم أسباب انتقاد المنطق الصوري انفصاله عن اللغة الطبيعية ، وقد أشارت كاترين أوريكيوني إلى هذا الانفصال عن واقع اللغة بقولها : =

الجدلي الذي يقول بإمكانية التناقض وإمكانية الاحتمال الثالث أي لا (أ) ولا نقيضه.

يتغير المسلك الاستدلالي وفقا لأهدافه، فمسالك الإقناع في التعليم والوعظ والمناصحة -مثلا- تختلف عن مسالك التبكيت والإحراج في السجال أو المناظرة، فالأولى تعتمد أساسا على المبادرة بالأدلة، وتفرض نمطا معينا من الحجاج يبدأ بالادعاء (أي بتقديم الدعوى وشرحها)، ثم الاحتجاج لها بالأدلة، في حين تعتمد الثانية على تقديم دعوى الخصم، ثم تستتبع بأدلة الدحض والتفنيد.

وعندما تكون الغاية هي تسويغ فكرة فيلجأ حينئذ إلى التوجيه، وكذا فإن غاية التبرير تحتاج إلى ذكر المسوّغات أو الأعذار، أما إذا كانت الغاية هي التفسير فيتوسّل لها بالتعليل، كما أن التوضيح يحتاج إلى الشرح والتفصيل والتمثيل، وأما البرهنة المنطقية فتحتاج إلى اللغة الصورية الرمزية وقواعد المنطق الأرسطي.

والاستدلال لا ينقطع تماما عن المسالك الأخرى؛ إذ قد

= «إن القياسات المطابقة للأصول هي عملة نادرة للغاية في الأقوال التي يتم إنتاجها في اللغة الطبيعية» . كاترين كيربرات أوريكيوني ، المضمر ، ترجمة ريتا خاطر ، مراجعة جوزيف شريم (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٨) ، ص ٢٩١ .

تصبح الحاجة ماسّة إلى التعريف والشرح أو السرد أو الوصف أو السبر والتقسيم إما لغرض التوضيح (كما قيل قديما الحكم على الشيء فرع عن تصوّره)، أو لتعزيز الحجة وتنويع طرائق الحجاج، وقد تضاف إليها مسالك أخرى كالتلطف والتعليل، والتصوير البياني بأداتيه التشخيص والتجسيم، والتحسين البديعي كالمطابقة والمقابلة والجناس والسجع.

ويترتب على الاستدلال إحداث منجزات ثلاثة: منها اثنتان يحدثهما المتكلم وحده، وهما الدعوى، والبيّنة، ومنها واحدة يشترك فيها المتكلم والسامع وهي القناعة، فبينما تنشأ الأولى عن ادعاء المحاجّ، وتنشأ الثانية عن استشهاده، تنشأ الثالثة عن إقناعه وقناعة المخاطب. ولا يمكن القول بنجاح الاستدلال ما لم تحدث القناعة في نفس الخصم، وقد تحول المكابرة دون الاعتراف بحدوثها، وهو ما يسمى عنادا.

وإضافة إلى القياس الأرسطي وغيره من عناصر الاحتجاج في المنطق الصوري الذي يكاد استعماله مقتصرا على المغرمين بالمنطق والحجاج في مناظراتهم يميل المتخاطبون العاديون إلى استخدام مسالك كثيرة في محاجاتهم اليومية: منها الحكاية، وذكر المثل، وذكر النموذج، والتلطّف، والترغيب، والتنفير، وقياس الأولى أو مفهوم الموافقة، وإثبات النظير، والاستدلال بالخلف، وسنكتفي بذكر مثال واحد لكل من النوعين الأخيرين، فالأول –وهو إثبات النظير– كقول الشاعر:

فإن تفُق الأنامَ وأنت منهم   فإن المسك بعْضُ دم الغَزال

وهو استدلال ينضوي على ثلاثة ادعاءات في الأقل هي:

١- الممدوح يفوق باقي الأنام، وهذه ذكرت على أنها مسلمة .

٢- المسك بعض دم الغزال .

٣- تفوّقك على الأنام له نظير هو كون المسك بعض دم الغزال.

والنتيجة هي لا غرابة في تفوقك على الأنام بل هو أمر معتاد

وأما الثاني -وهو الاستدلال بالخلف- فيقصد به البرهنة على صحة قضية ما بإثبات خطأ النقيض، ومن أهم أدواته «لو»، كقولك لإثبات موت شخص: «لو كان حيا لتحرّك»، ويقوم هذا البرهان على قاعدة عدم اجتماع النقيضين معا في محل واحد، وعدم ارتفاعهما معا، فالإنسان إما حي أو ميّت، ولا يكون حيا وميتا معا، أو لا حيا ولا ميتا. وفي هذا المثال أردنا أن نبرهن على موت المتحدث عنه، فقلنا إنه ميت، بدلالة أنه لو كان حيّا لتحرك. ومن استخداماته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:٢٢].

وفي كثير من الأحيان يلجأ المحاجّ إلى المسالك الحجاجية الضاغطة من مثل:

١) التراكم: وهو تعاقب الأدلة لمحاصرة الخصم .

٢) التـدرج: وهو الابتـداء بالدليل الأضـعف والانتـهـاء بالأقوى .

٣) التكرار: وهو الإعادة بالمرادف لتعزيز الحجة.

وقـد يلجأ المحاجّ إلى مسلك المغـالطة المنطقيّـة، أو مـسلك الاستمالة العاطفيّة لتمرير دعواه، ومن بين أهم المغالطات[1]:

١- تشويه سمعة الخصم

وهو أن يعمـد المحاجّ إلى التقليل من شأن خصمه بتعليق غير مناسب لموضوع حجته بدلا من تفنيد حجته. ومن أمثلتها طفلة تنتقد الشيوعيين بالتساؤل: ماذا قدم الشيوعيون للعالم غير خراب الاقتصاد وإفقار الشعوب؟ فيرد الخصم بقوله: حتى الأطفال صاروا بارعين في السياسة والاقتصاد .

---

(١) للتوسع في مطالعة بعض هذه الأنواع من المغالطات وغيرها يمكن الاطلاع على

T Edward Damer, Attacking Faulty Reasoning: a Practical Guide to Fallacy-free arguments, 7th ed (Belmont, Calif: Wadsworth; Andover: Cengage Learning, 2012).

Van Eemeren & Grootendorst, A Systematic Theory of Argumentation. The Pragma-dialected Approach. (Cambridge: Cambridge University Press, 2004).

٢- القلب الشرطي

وهو أن نجعل التالي مقدما في أسلوب الشرط، كأن يقال لنا: إذا كان مصريا وعاش طيلة حياته في مصر فلا بُدَّ أن يتحدث اللهجة المصرية، فنرد: هو يتحدث اللهجة المصرية، إذن هو مصري وعاش طيلة حياته في مصر .

٣- اللبس

وهو أن نأتي باللفظ أو التركيب محتملا لأكثر من معنى بغرض التمويه والتلبيس على المخاطب، فنقول مثلا: زيد طبيب بصير، الذي يحتمل معناه أن يكون طبيبا متمكنا أو طبيبا أعمى .

٤- البرهنة بحادثة

وهو أن نستدل بحادثة لتثبيت قاعدة أو تفنيدها، كأن تقول: يقولون التدخين يقصّر العمر، عمي قضى معظم عمره مدخنا، ومع ذلك مات في سن التسعين .

٥- القياس مع الفارق

وهو أن يشتمل القياس على فارق جوهري يخل بمصداقيته، كأن يقول أحدهم: لقد صادقت كثيرا من الناس ولم أجد منهم غير الخيانة، فنرد عليه: أصابع اليدين غير متساوية، في محاولة

لإقناعه بأنه لما كانت أصابع اليدين غير متساوية فلا بُدَّ أن الناس كذلك، مع عدم وجود علاقة بين اختلاف الناس واختلاف الأصابع .

٦- الاحتجاج بالسلطة

وهو أن نستعيض على الحجة المنطقية بنسبة القول إلى من له تأثير سلطوي في المتلقي، كأن يحاول متزمت إقناعنا بقضية علميّة اعتمادا على مصدر ديني، فيقول مثلا: الاستنساخ لا يحدث بين الحيوانات البرية (لقد سمعت هذا من الشيخ ابن باز نفسه).

٧- الإخلال بالتماسك المنطقي

وهو أن يأتي المحاجّ في تفاصيل كلامه بما يُخلّ بدعواه الأساسية، كأن يقول المحاجّ: أنا لست جهويا، ولكن بحكم التاريخ والجغرافيا فإن منطقتنا تستحق النصيب الأكبر من الثروة. فالمتكلم هنا ينفي أنه جهوي ثم يناقض ذلك بالمطالبة بالحصول على أعلى نسبة من ثروة البلد للمنطقة التي ينتمي إليها .

٨- النمطية

وهو الحكم على فرد أو فئة اعتمادا على ما كوّنه المتكلم أو

المجتمع الذي ينتمي إليه من اعتقاد عام يعوزه الدليل، ويتسم بتعميم قائم على ما عرف عن بعض الأفراد الذين ينتمي إليهم المحكوم عليه، كأن يقال: خليفة بدويّ، فلا بُدَّ -إذن- من أن يكون كريما .

٩- الافتراض الزائف

وهو ألا يصرح المحاجّ بما يريد قوله، بل يمرره على أنه مسلمة مشتركة بينه وبين مخاطبه، كأن يقول المذيع لضيفه المؤيد للثورة متسائلا: إلى متى ستستمرون في القيام بالتخريب باسم الثورة على الاستبداد والفساد؟

٧، ٣، ٢، ٤- مسلك الشرح

غاية الشرح تقديم معلومات عن الموضوع، وتوضيح مصطلحاته وملابساته، ومن وسائله التعريف، والتفصيل بعد الإجمال، والتصنيف والتفريع، والمقارنة، والتمثيل، والسبر والتقسيم.

١- التعريف

التعريف هو ذكر خصائص الموضوع التي يتميز بها من غيره، وكلما زادت القيود في مفهوم المعرَّف نقص أفراد الماصدق، فإذا قلنا «حيوان» -مثلا- شمل الإنسان وغيره، فإذا

أضفنا القيد «ناطق» قلّ من ينطبق عليهم التعريف باستبعاد غير الإنسان، وهكذا فإن إضافة «ذكر» أو «بالغ» سيقلل من أفراد الماصدق.

ومن شروط التعريف السليم أن يكون جامعا مانعا، والمقصود بالجامع أن ينطبق على كل الأفراد الذين يشملهم التعريف، وبالمانع أن يستبعد كل الأفراد الذين لا يشملهم. ومن أهم مثالب التعريف الدوْر، وهو احتواء التعريف على لفظ المعرف أو ما اشتق منه، كأن يقال: المدير هو من يدير المؤسسة، والإبهام، وهو أن يكون المعرَّف أوضح من التعريف.

وقد تعوّد الناس أن يصوغوا تعريفاتهم بطرائق شتى منها التعريف بذكر النموذج، وذكر المثال، والإشارة إلى واحد من أفراد الماصدق، والتعريف بذكر مرادف المعرَّف .

٢- التفصيل بعد الإجمال

وهو أن يذكر الكلام مفصلا بعد أن سبق ذكره مجملا، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]. فقد جيء بجملة «نسقيكم» ومتعلقاتها لتبيّن المقصود بالعبرة؛ ولذلك أعربت على أنها جملة تفسيرية لا محل لها من الإعراب. ومنه الإتيان بالبدل كقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] بعد قوله: ﴿اهْدِنَا

الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم﴾ [الفاتحة: ٦]. والغرض من التفصيل بعد الإجمال التشويق للتفاصيل، وللعناية بالعام، وتهيئة المخاطب للدخول في التفاصيل دون تشتيت ذهنه .

٣- المقارنة لإبراز الفروق بين المتشابهات

يمكن أن تؤدى المقارنة بطرق عديدة منها المقارنة المجازية، التي يستعان بها عادة لتوضيح المجهول بتشبيهه بما يعتقد أنه معلوم للمخاطَب، ولاسيما إذا كان المراد توضيحه من المجرّدات فيتوسل بالتشبيه، أو الاستعارة لمساعدة المخاطب على تقريب صورته في ذهنه، ولمّا كانت الاستعارة قائمة على المبالغة في التشبيه الذي قد يصل إلى حد المطابقة فإنها أقوى من التشبيه؛ وذاك لأن هذه المبالغة تتضمن الادعاء بأن المشبه والمشبه به شيء واحد، وقد تكون المقارنة بإضافة علامة النسب وهي الياء في العربية، ويكثر ذلك في حقل الألوان مثل برتقالي، وأرجواني، وتِبْني .

٤- التصنيف:

ويكون بذكر الأنواع، وأفضله ما كان مستغرقا لكل الأصناف، ومبنيا على الاستقراء التام، وذلك كقولك: المواصلات: إما بريّة أو جويّة أو بحريّة .

٥- التمثيل:

وهو ذكر الأمثلة لتوضيح المسألة قيد البحث .

٦- السبر والتقسيم:

وقد عرفه الغزالي «بأن ينحصر شيء في جهتين ثم يبطل أحدهما فيتعين الآخر، أو ينحصر في ثلاث ثم يبطل اثنان فينحصر الحق في الثالث، أو يبطل واحد فينحصر في الباقين»[١]؛ أي أنه اختبار كل الاحتمالات الممكنة لاستقراء الصالح منها لدخوله تحت الأقسام المناسبة، واستبعاد ما أسقطه الاختبار. وقد كانت له تطبيقات كثيرة في كتب الأصول، ولاسيما في باب القياس والعلة[٢] .

---

(١) أبو حامد الغزالي ، أساس القياس ، تحقيق : فهد بن محمد السدحان ، (الرياض : مكتبة العبيكان بالرياض ، ١٩٩٣) ، ص ٣٢ .

(٢) عرف السبر والتقسيم في باب القياس بأنه «حصر الأوصاف التي توجد في الأصل «المقيس عليه» ، والتي تصلح للعلّيّة في بادئ الرأي ، ثم اختبارها بإبطال ما لا يصلح بطريقة ، فيتعيّن الباقي للعلّيّة» . ينظر عضد الملة والدين ، شرح مختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب ، ط٢ . (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣) ، ٢ : ٢٣٦ ، وشهاب الدين القرافي ، نفائس الأصول في شرح المحصول ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، ط٣ (الرياض : مكتبة نزار الباز ، ١٤٢٠ هـ) ، ٣٥٢٢/٨ .

٧، ٤- مسالك السَّوْق

المقصود بالسَّوْق نصب قرينة أو أكثر للمخاطب لتوجيهه نحو معنى معين من بين المعاني المحتملة للكلام ليكون مقصود المتكلم. والمراد بالقرينة هنا الوحدة الصغرى للسياق[1]، وقد تكون هذه القرينة لفظية أو خارجية (تسمى أحيانا معنويّة)، وسنمثل للقرينة اللفظية بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ إذ يبدو ظاهريا أن المقصود من الجزء الثاني من الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ تحليل البيع وتحريم الربا، ولكن الواقع أن ليس هذا هو المقصود هنا، لأنه ليس المعنى المسوق له الكلام بقرينة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ التي تشير إلى قولهم بمساواة البيع والربا، وهو ما يدل على أن المقصود هو التفريق بين البيع والربا؛ أي التشديد على اختلافهما، وليس التحليل والتحريم المعروف سلفا من أدلة أخرى سابقة لهذه الآية.

أما سوْق القرينة الخارجية لتوجيه المخاطب نحو معنى ما دون آخر محتمل، فيمكن التمثيل له بقصة الهجرة عندما كان يُسأل أبوبكر – رضي الله عنه – في طريقه إلى المدينة، في رفقة النبي –

---

(١) توصّلت إلى هذا التعريف بعد متابعة طويلة للسياقات التي ترد فيها كلمة «القرينة» في كتب التراث.

ﷺ - (في هجرته من مكة إلى المدينة في سنة ٦٢٢ للهجرة)، عمن معه، فكان يقول للسائل: «هذا الرجل الذي يهديني السبيل»[(١)]، فينصب قرينة خارجية وهي وجودهم في الصحراء لإيهام مخاطبه أنه يقصد أن من معه هو دليله للطريق، مع أنه يقصد أنه الهادي له إلى سبيل الحق والرشاد.

وقد استعمل مسلك السوق في المثال الأول لغرض التوضيح وغاية الإخبار والإعلام، في حين استعمل في المثال الثاني للتلبيس على السامع وتضليله. وفي كلتا الحالين فإن ما ذكر يبرهن على أن العناصر التداولية أو السياقية هي المحدد الأساسي لمقصد المتكلم، وهي التي بها تتحول المضامين الدلالية إلى بؤرة كلامية تتمحور حولها الأغراض والغايات التخاطبية، وسنشرح هذه النقطة من خلال ما يعرف بالتضمن والافتراض .

١- التضمّن

التضمن علاقة بين قضيتين على نحو تصدق فيه الثانية كلما صدقت الأولى، في حين لا يرتبط صدق الثانية بصدق الأولى ولا بكذبها. كأن تقول: «أكلت تفاحة» التي تتضمن

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٤٥ هـ)، باب الهجرة، ٧٩/٥ .

أكلت فاكهة، ولو قلت: «أكلت فاكهة» فلا يعني ذلك أنك أكلت أو لم تأكل تفاحة. وهذه العلاقة يمكن تلخيصها في دلالة خاص على عام يندرج في تعريف ذلك الخاص، فتعريف التفاحة -مثلا- وهو المعنى الخاص هنا يندرج فيه ذكر العام وهو الفاكهة؛ إذ لا يكون التعريف جامعا إن لم يشتمل على ذكر الفاكهة؛ لأنها جنس أعم من التفاحة ومعرف له.

ومما ينبغي أن يشار إليه هنا أن المتكلم لا يتحكم في ما تتضمنه الكلمات من المعاني، لأن التضمن مفهوم منطقي متأصّل في الكلمات نفسها خلافا للافتراض الذي يتحكم المتكلم في معظم حالاته؛ ولذلك فإن دور المتكلم يقتصر فقط على اختيار الكلمات المحتوية على التضمّن المناسب لمقصوده على غيرها من الكلمات لتحقيق مراده. وذلك بأن يعدل عن اللفظ المعبر عن المعنى الأول (أو المعنى الأساسي)، إلى لفظ آخر يكون فيه المعنى الأول معنى ثانيا متضمنا، وذلك كأن يترك عبارة « لقد مات أخي» أو « لقد قُتل أخي» ويقول: «لقد استُشهد أخي» للإيحاء بفائض العبارة وهو معنى التضحية المفهوم من الفعل استشهد، وبذلك ينسحب مفهوم الوفاة من البؤرة ويحل محله الاستشهاد بفضل مسلك السوق.

ومما يلحظ فيما يتعلق بالتضمّن بروز ظاهرة لها صلة بمباشرة بمسلك السوْق، وهي الدلالة الكامنة للتضمّن التي لا تبرز إلا باستثارتها بعبارة أخرى مرتبطة بها، وذلك نحو: «في القفص

عصـفور، ولكن ليس فيـه طائر»؛ إذ قـد لا يخطر ببـالنا ونحن نستمع إلى الجملة الأولى «في القفص عصفور» أن من معانيها على سبـيل دلالة التـضـمّن «في القـفص طائر»، ولكن مـا إن تأتي بعدها جملة «ليس فيه طائر» حتى تتبادر إلى الذهن تلك الدلالة، فتصبح عبارة «في القفص عصفور» تعني «في القفص طائر»، وتتـحوّل تلك الـدلالة الكامنة إلى دلالة نشطة، وهو مـا يعيننا على كشف التناقض بين «في القفص عصفور»، و«ليس فيـه طائر». ووجـه عـلاقـة هذه الظاهرة بالسـوق أن ذكـر العـبـارة الثـانيـة (الذي هو بمثـابة نصب قـرينة لفظيـة) هو الذي أخـرج دلالة التضمن في الأولى من حيّز الكمون إلى حيّز التفعيل، أو من حيّز الوجود بالقوّة إلى حيّز الوجود بالفعل إذا ما استعملنا عبارات المناطقة .

٢- الافتراض

الافتـراض[١] هو معلومـة أو زعم أو اعـتـقـاد مـتـضـمّن في القـولة على نحـو يوحي بأنه مـعـهـود ومـسلّم به بين المتكلم

---

(١) عرّفـه هدسن Hudson بأنه ما يزعم صدقـه في جملة تعبر عن معلومات أخرى .

Hudson, G.. Essential Introductory Linguistics. (Michigan: Blackwell Publishers Inc, 2000),p.321.

والمخاطب. وذلك مثل «خرج خالد من الغرفة» الذي يفترض أنه سبق له أن دخل فيها، و«طلّق سعيد سميرة» الذي يفترض أنه سبق له الزواج بها.

ومما يميز الافتراض من سائر أنواع الدلالة أنه المعنى الوحيد الذي يبقى بعد نفي الجملة، فقولنا مثلا: «لم يخرج خالد من الغرفة» سيبقي معه الافتراض السابق، وهو أنه سبق له أن دخل فيها.

ومن أنواع الافتراضات المعروفة في علم الدلالة[1]:

أ - الافتراض الوجودي: وهو افتراض مستمد مما يحدث في العالم الخارجي، فقولك مثلا: «زوجة جارنا تزعجنا ببوق سيارتها» يحتوي على عدد من الافتراضات، منها: أن لك جارا، وأن له زوجة، وأن لها سيارة، وأن للسيارة بوقا. وللتأكد من أن كل ما سبق هي افتراضات وليست من

(1) See: Yule, G. Pragmatics. (London: Oxford University Press, 2000), p.27.

وهناك أنواع أخرى من الافتراض اقترحها جنز الوود Jens Allwood

See: Jens Allwood. "Conventional and Nonconventional Presupposition" in Hovdhaugen (Ed.) Papers from the Second Scandinavian Conference of Linguistics, University of Oslo, Dept of Linguistics,1975, pp.1-14.

منطوق الكلام أن نفي القولة بقولنا «زوجة جارنا لا تزعجنا ببوق سيارتها» لا يلغي تلك الاستنتاجات. أما المعنى المنطوق فهو الإخبار بإزعاج زوجة الجار للمتكلم ببوق سيارتها.

ب - افتراض الحقائق: وهو افتراض يأتي بعد أفعال تدل على وجود حقيقة ما بغض النظر عن صدق تلك الحقيقة في الواقع، ومن ذلك «أعلم أن الأرض كروية» التي تدل على افتراض كروية الأرض، و«لقد اكتشفت أن القطة مختفية تحت السرير» التي تفترض وجود القطة مختفية تحت السرير، و«لا أعرف أنك موجود خلفي» التي تفترض أن المخاطب موجود خلف المتكلم.

ت - الافتراض المعجمي: وهو افتراض يرتبط ببعض الكلمات المركبة التي تشتمل على دلالة غير مصرح بها ولكنها مندرجة على نحو تكون فيه شرطا سابقا لتحقق معنى الكلمة الظاهر، كدلالة الفعل دخل على خروج سابق، ومات على حياة سابقة، وأخفق على أنه حاول، وطلّق على أنه سبق له أن تزوج. ومن ذلك نحو «توقف عمرو عن التدخين» الذي يدل على أنه دخّن سابقا.

ث - الافتراض التركيبي: وهو افتراض ينشأ من المركبات، ومن أمثلته ما ارتبط بصوغ الأسئلة، حيث تشتمل معظم الأسئلة على افتراض مزعوم، كما في نحو «كم لديك

ولد؟» التي تفترض أنك متزوج وأن لديك ولدا أو أكثر، و«متى ستتخرج؟» التي تفترض أنك ستتخرج، و«لِمَ تصرّ على السكن في العاصمة؟» التي تفترض إصرار المخاطب على السكن في العاصمة، و«أين أخفيت الكرة؟» التي تفترض أن المخاطب أخفى الكرة.

ج - الافتراضات التوهمية: ومن أمثلتها «زيد يتوهم أنه ناجح» وهو ما يفترض أنه ليس بناجح، وسعاد تتخيّل «أنها تحلق في السماء»التي تفترض أنها لا تحلق في السماء حقيقة.

ح - افتراض النقيض: ومن أمثلته «خالد يتظاهر بالمرض» التي تفترض أنه ليس مريضا.

وما يربط الافتراض بالسوق أن القضية المعبر عنها بالافتراض قد تتحول في كثير من الأحوال نتيجة عملية التبئير المرتبطة ارتباطا مباشرا بمسلك السوق إلى قضية مندرجة في البنية الدلالية إذا ما أرادها المتكلم أن تكون كذلك حتى تقدّم للمخاطب على أنها مسلمة مع أنها قضية إضافية يراد تمريرها تمريرا خفيا كي لا تبدو كأنها البؤرة الأساسية المسوق لها كلام المتكلم.

ولكي نزيد هذا الأمر توضيحا يجدر أن نذكّر بأن المتكلم قد يستغل حقيقة أن معظم الأسئلة تحمل افتراضات، -كما يفعل الكثير من السياسيين والإعلاميين- لتمرير مضمونها على المتلقي كي تتسرب إلى اللاشعور مباشرة في ضوء انشغال

الرقابة العقلية للمخاطب بالمنطوق الصريح للكلام. ومن ذلك – مثلا– أن يحاول المذيع تشويه سمعة ضيفه العربي المعتز بعروبته بالسؤال الآتي: كيف كانت نتائج زيارتكم لإسرائيل؟ أو ما الذي حققتموه من زيارة إسرائيل؟ ولا يقتصر هذه الأمر على الأسئلة، بل يمكن أن يحوّل المذيع البؤرة (وهي الإخبار بأن الضيف قد سبق له أن زار إسرائيل) إلى مسلّمة بتحويلها إلى افتراض متضمن في خبر كأن يقول مثلا: بعد زيارتكم إسرائيل حصلتم على دعم أمريكي كبير.

وقد أدّى عدم معرفة بعض الإعلاميين بما ذكرناه إلى وقوعهم في أخطاء إخبارية فاحشة، ربما كان من أكثرها شيوعا استعمالهم الفعل «أكّد» بمعنى صرّح، حيث يغفلون عن المعنى الإفصاحي للكلمة ويركزون فقط على الجانب الوصفي فيها، فيقولون مثلا: «أكّد الناطق الرسمي للحكومة الإسرائيلية تورّط حماس في عمليات إرهابية»، فيقدمونها كأنها حقيقة واقعة قبل تصريح الناطق الرسمي، وما كان منه إلا أن أكّدها مع أنهم يقصدون أنه صرّح بذلك.

الخاتمة

لقد برهننا في الفصل الأوّل على أنّ المحايثة لا تناسب النصوص المقاصديّة؛ لأنه لا يمكن بلوغ مراد المتكلم دون ربط الخطاب بمرجعياته التي يشير إليها، وقد تبيّن لنا بعد المناقشة أن المواضعات اللغوية هي مصدر الإحالات الصريحة للنص، وأن مبادئ التخاطب تحدّد إحالاته غير الصريحة، وأن المنطق يتحكّم في افتراضاته وتضمّناته، أما إشاراته فمحكومة بالسياقين الداخلي والخارجي، في حين تحدّد القرائن مقاصده، ولا يمكن الحكم على صحة النص دون الرجوع إلى النحو والصرف، ولا الإقرار بحجيته ومقبوليته دون اللجوء إلى المنطق والحجاج، ولا معرفة صدقه دون النظر في نسبته الخارجية والاستعانة بمعرفة قائله ومدى اتساقه المنطقي، كما لا يمكن اكتشاف أسرار جماله وتحليقاته دون التوسّل بالبلاغة والأسلوبيّة. وتكتشف دلالاته الخاصة بالرجوع إلى عادة المتكلّم في كلامه، وأحكامه الشرعيّة والقانونيّة بالاحتكام إلى الشرع أو القانون، وتتكفّل العلوم المناسبة بشرح معانيه الاصطلاحيّة واختبار دقة معلوماته ومفاهيمه وآرائه، وتحدد عناصره

الاجتماعية هويته وسلطته وأخلاقياته وأيديولوجياته، في حين يكشف لنا علم النفس دلالاته النفسانيّة، وتتكفّل مرجعيّات التناص بمعرفة اقتباسات النص وتوليداته. وإذا كان شذوذه تحدّده انتهاكات مرجعيّاته المؤسسيّة فإن فرادته تسوّغها عدولاته وانزياحاته الفنية.

وتتفاوت هذه المرجعيات في أهميتها بحسب الجنس الخطابي ووظيفته، وهو ما يؤدي إلى هيمنة مرجعيّة على أخرى، ويقوم المخاطَب بدور حاسم في ترجيح مرجعيّة على أخرى في عمليات التلقي والحمل والتحليل.

وانبنى الفصل الثاني على فكرة أن المتكلمين والمؤلفين يلجؤون إلى مسالك معيّنة لتحقيق مقاصدهم وأغراضهم وغاياتهم، ولم يعد المعنى في هذه المقاربة التخاطبية الغائية إلا مرجعا وضعيا ضمن طائفة من المرجعيات السياقية والاجتماعية يتوسّل بها مؤلف الكلام إلى بلوغ مراده. وتبيّن لنا أن كلا من المعاني والمقاصد قد تتعدّد على نحو طبقي مرتّب، كما أن مسار التخاطب يأخذ شكلا تراتبيّا يبدأ من المسلك الذي يأتلف فيه اللفظ مع المعنى نحو تكوين المقصد المرتبط بالغرض والغاية، ويقاس النجاح الحقيقي لعملية التخاطب بتحقيق الغاية، وأما إنجاز الغرض فهو نجاح نسبي فقط.

وقد صنّفت المسالك إلى مسالك بيانية، وموقفية (أو تفاعليّة)، وبنائية، وسوْقيّة. وأخذت المسالك البيانية صورتي

التصريح والتلميح، أما المسالك الموقفية فترصد حال المخاطَب لتتشكّل بالشكل المناسب لحاله مراعاة لمقتضاه، وأما البنائية فتشمل المسالك النظمية (على مستوى الجملة) والتأليفية (على مستوى النص)، وتتمثل الأولى في أفعال الكلام كالإخبار والأمر والاستفهام، وتأخذ الثانية عادة شكل المسالك النمطيّة الشائعة، وهي السرد والوصف والاستدلال والشرح، وهناك أيضا مسالك السوْق التي تُسخّر فيها القرائن المنصوبة لخدمة مراد المتكلّم.

ويرتبط المسلك عادة بوسائل جزئية تقل أو تكثر لتنفيذه، فمسلك التصريح -مثلا- يحتاج إلى اتباع الأصول الوضعية، أو نصب قرينة تدل على العدول عن المعنى الوضعي، ومسلك الحجاج يحتاج إلى وسائل الإقناع كالاستقراء والقياس والتعليل. ويعد التمكّن من بناء المسالك الخطابية من مشمولات الكفاية التخاطبية التي تشمل أيضا معرفة المتخاطبين بالمواضعات اللغوية المعجمية منها والقواعدية، وقدراتهم المنطقية، ومعرفتهم بأصول التخاطب ومعرفتهم بالمحيط الخارجي، وإلمامهم بكل السياقات التي لها صلة بموضوع التخاطب.

ومن النتائج التي توصل إليها المؤلف أن المسلك والغرض والغاية هي مفاهيم نسبية بحيث يمكن أن يتحول ما كان غرضا في مقام تخاطبي ما إلى مسلك لبلوغ غرض غير لغوي مثلا.

ومن الطبيعي ألا تكون مقاصد الكلام محدودة العدد، كما لا يمكن الادعاء أن المسالك والأغراض والغايات المذكورة في هذا الكتاب حصرية استغراقية، ولا يمكنها أن تكون كذلك في مثل هذا العمل المتواضع، ولكن حسبنا أن نفتح الطريق للبحث بالاعتماد على هذه المقاربة التخاطبية، ومن الأسئلة التي يمكن أن تثار أتعدد المسالك مرتبط بتعدد أفراد المقاصد أم بتعدد أنواع الأغراض أم بتنوّع الغايات؟

المراجع العربية

* الآمـدي، علي بن مـحـمـد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢- ١٩٨٦م).
* الأنصـاري، عـبـد العلي مـحـمـد بن نظام الدين، فـواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، ط٢ (قم إيران: دار الذخائر، ١٣٦٨).
* الأنصاري، عبد العلي، فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، ط٬٢ (قم، إيران: دار الذخائر، ١٣٦٨).
* أوريكيوني، كاترين كيربرات، المضمر، ترجمة ريتا خاطر، مـراجعـة جوزيف شريم (بيـروت: مـركـز دراسـات الوحـدة العربية، ٢٠٠٨).
* إيكو، إمبرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكيّة، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠) ص ٢٣.
* البـخاري، أبو عـبـد الله مـحـمـد بن إسـمـاعـيل، صـحـيح البخاري (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٤٥ هـ).
* التهانوي، محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون، إشراف رفيق العجم (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦).
* التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف مصطلحات الفنون

والعلوم، تحقيق د رفيق العجم (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٦).
* ابن تيميّة، تقي الدين، مجموع فتاوى، (الرياض: مجمع الملك فهد، ١٩٩٥).
* الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق الشيخ محمد رضا(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨).
* ابن حزم، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي،الإحكام في أصول الأحكام (القاهرة: دار الحديث، ١٤٠٤).
* الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥).
* الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الشافعي، تفسير الفخر الرازى (بيروت: دار إحياء التراث العربى، د ت).
* راسل، برتراند، ما وراء المعنى والحقيقة، ترجمة محمد قدري عمارة، مراجعة الهادي جلال عمارة (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥).
* ابن زكريّا، أبو الحسين أحمد بن فارس، مقاييس اللغة (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٢.
* الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ).

* السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد، أصول السرخسي، تحقيق أبو الوفاء الأفغاني (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣).
* السكاكي، أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم (القاهرة، البابي الحلبي، د ت).
* السلسيلي، أبو عبد الله ، شفاء العليل في إيضاح التسهيل، تحقيق الشريف عبد الله البركاتي (مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية، ١٤٠٦هـ).
* ابن سينا، الحسين بن علي، النجاة في المنطق والإلهيات، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢).
* السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق : فؤاد علي منصور (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨).
* الشهري، عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤).
* صليبا، جميل، المعجم الفلسفي (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢).
* عضد الملة والدين، شرح مختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب، ط٢. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣).
* العطار، حسن بن محمد بين محمود، حاشية العطار على

شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، (بيروت: دار الكتب العلمية، د ت).
* علي، محمد محمد يونس، تفريق القرافي بين الدلالة باللفظ ودلالة اللفظ: دراسة براغماتية لنموذج من المنهج الدلالي الأصولي (الأردن: مجلة مؤتة، جامعة مؤتة، مج ١٨، ع ٨ ، ٢٠٠٣).
* عليّ، محمد محمد يونس، وصف اللغة العربية دلالياً: دراسة حول المعنى وظلال المعنى (طرابلس ليبيا: منشورات جامعة الفاتح، ١٩٩٣).
* الغزالي، أبو حامد أساس القياس، تحقيق : فهد بن محمد السدحان ، (الرياض: مكتبة العبيكان بالرياض ، ١٩٩٣).
* الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ٢٠٠٢).
* القرافي، شهاب الدين، نفائس الأصول في شرح المحصول، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط٣ (الرياض: مكتبة نزار الباز، ١٤٢٠ هـ).
* القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، (تونس: دار الكتب الشرقية، د.ت).
* القزويني الخطيب، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن،

التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح عبدالرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٠٢م).
* ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، إعلام الموقعين عن رب العالمين (دار الكتب العلمية، ١٩٩١).
* ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الأمثال في القرآن الكريم، تحقيق : إبراهيم بن محمد (طنطا: مكتبة الصحابة ، ١٩٨٦).
* كنط، عمانوئيل، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة (بيروت: مركز الإنماء القومي، د ت).
* مارتان، روبير، في سبيل منطق للمعنى، ترجمة الطيب البكوش، وصالح الماجري (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦).
* محب الله بن عبد الشكور، شرح مسلم الثبوت، ط٢. (قم، إيران: دار الذخائر، ١٣٦٨).
* محفوظ، نجيب، خان الخليلي (القاهرة: دار مصر للطباعة، د ت).
* ابن الملك، معز الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز، شرح المنار (دم: المكتبة العثمانية، ١٣١٩هـ)
* ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د ت).

* مونسي، حبيب، فلسفة المكان في الشعر العربي: قراءة موضوعتية جمالية (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١).
* الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تحقيق لجنة من الجامعيين (بيروت: : مؤسسة المعارف، د ت).
* ابن هشام، جمال الدين عبد الله بن يوسف، شرح اللمحة البدرية، تحقيق هادى نهر (بغداد: ١٩٧٧).

المراجع الأجنبية:

* *Alexandra Georgakopoulou, Dionysis Goutsos, Discourse analysis: an introduction, (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2004).*
* *Allwood, Jens. "Conventional and Nonconventional Presupposition" in Hovdhaugen (Ed.) Papers from the Second Scandinavian Conference of Linguistics, University of Oslo, Dept of Linguistics, 1975, pp. 1-14.*
* *Barbara Johnstone, Discourse Analysis (Oxford: Blackwell, 2002) .*
* *Barsky, Robert F. Zillig Harris: From American Linguistics to Socialis Zionism (Cambridge Massachusetts: the MIT, 2011).*

* *Blyler, Nancy Roundy. Purpose and Composition Theory: Issues in the Research. (Journal of Advanced Composition, v9 n1-2 p97-111 1989).*
* *Brown, G and G. Yule, Discourse Analysis (Cambridge: Cambridge University Press, 1983).*
* *Burke, Kenneth, A Rhetoric of Motives (Berkeley: California: University of California Press, 1969)*
* *Chomsky, N. (1957). Syntactic Structures (The Hague: Mouton Publishers, 1957).*
* *Cook, G, Discourse (Oxford: Oxford University Press, 1989).*
* *Crystal, Introducing Linguistics (London: Penguin Group, 1992).*
* *Damer, T Edward , Attacking Faulty Reasoning : a Practical Guide to Fallacy-free arguments, 7th ed (Belmont, Calif: Wadsworth; Andover: Cengage Learning, 2012).*
* *David Nunan, Introducing Discourse Analysis (London: Penguin Group, 1993).*
* *De Beaugrande, R., & Dressler, W. U, Introduction to text linguistics (London: Longman, 1981).*

* *Dijk, Teun A. van and Walter Kintsc. Strategies of Discourse Comprehension (New York: Academic Press, 1983).*
* *Dörge, Friedrich Christoph. Illocutionary: Austin's account and what Searle made out of it (Inaugural-Dissertation, PhD, der Fakult?t für Philosophie und Geschichte der Eberhard-Karls-Universit?t Tübingen, 2004).*
* *Duranti, A. & Goodwin, C. (Eds.), Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon (Cambridge University Press, 1992).*
* *Eemeren, Van & Grootendorst, A Systematic Theory of Argumentation. The Pragma-dialected Approach. (Cambridge: Cambridge University Press, 2004).*
* *Ehricha, Veronika & Charlotte Kosterb, Discourse organization and sentence form: The structure of room descriptions in Dutch (Discourse Processes, Volume 6, Issue 2, 1983).*
* *Fairclough N, Analysing discourse: textual analysis for social research (London: Routledge, 2003).*
* *Fairclough N, Critical Discourse Analysis: The Critical*

Study of Language (London: Longman, 1995).

* *Flower, Linda, and John R. Hayes. "The Cognition of Discovery: Defining a Rhetorical Problem." College Composition and Communication 31 (1980): 21-32.*

* *Foucault, Michel, Method , in Cultural Theory and Popular Culture: A Reader, 4th edn, edited by John Storey, (Harlow: Pearson Education, 2009)*

* *Foucault, Michel, Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings 1972-1977,. Colin Gordon ed, (New York: Pantheon, 1980).*

* *Gumperz , John J. Discourse Strategies (Cambridge: Cambridge University Press, 1982).*

* *Hudson, G.. Essential Introductory Linguistics. (Michigan: Blackwell Publishers Inc, 2000).*

* *James Paul Gee, An introduction to discourse analysis: theory and method, 2nd edition (New York: Routledge, 2005)*

* *Kinneavy, James L. A Theory of Discourse. Englewood Cliffs: Prentice, 1971.*

* *McCarthy, M,. Discourse analysis for language teachers)Cambridge:CUP, 1991).*

* *Nelson Phillips and Cynthia Hardy , Discourse analysis: investigating processes of social construction (London: Sage University, 2002).*

* *Paltridge, Brian. Discourse Analysis: An Introduction, 2nd edn (London: Ploomsbury Publishing, 2012).*

* *Reboul A. & Moeschler J., Pragmatique du discours (Paris, Armand Colin, 1998).*

* *Sapir, Edward. Language: An Introduction to the Study of Speech (New York: Harcourt, Brace, 1921).*

* *Schiffrin Deborah, Approaches to discourse, (Cambridge, MA & Oxford: Blackwell, 1994)*

* *Searle, John R. A Taxonomy of Illocutionary Acts". In Searle (1979), 1-29. First published in Language, Mind, and Knowledge. Minnesota Studies in the Philosophy of Science vii, ed. Keith Gunderson, (Minneapolis: University of Minnesota Press 1975, 344-369).*

* *Searle, John R. "Indirect Speech Acts". In Searle (1979), 30-57. First published in Syntax and Semantics 3: Speech Acts, eds. Peter Cole / Jerry Morgan, (NewYork: Academic Press 1975).*

* *Searle, John R. and Vanderveken, Daniel. Foundations of*

Illocutionary Logic. (Cambridge: Cambridge University Press).

* *Thompson, J, Studies in the Theory of Ideology (Cambridge: Polity Press, 1984).*
* *Vanderveken, Daniel. Towards a Formal Pragmatics of Discourse. in the Proceedings of the International Colloquium Logic and Dialogue held at Grenoble (France) in November 2002).*
* *Whorf, B. L, Language, Thought, and Reality, Edited J. B. Carroll (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1956).*
* *Yule, G. Pragmatics. (London: Oxford University Press, 2000).*

الفهرس